رواية

أجراس الموتى

المؤلف: ريهام إسماعيل

أجراس الموتى

تأليف: ريهام إسماعيل

غلاف:

تدقيق: هاجر محمود

تنسيق: أنس شرباش

الطبعة: الأولى

المقاس: 14 x 20

رقم الإيداع:

الترقيم الدولي:

بالتعاون مع دار المصرية السودانية
الإمارتية

الكتابة تجمعنا
للنشر والتوزيع

المدير العام: حسن محمد حسن

الناشر: دار الكتابة تجمعنا للنشر والتوزيع

المقر: الاسكندرية - صلاح الدين ش 8 الهدى

رقم الهاتف: 01066476589

فيسبوك: https://www.facebook.com/Wriiiter/

البريد الإلكتروني: elketabategmna@gmail.com

كل الحقوق محفوظة للناشر وغير مصرح بتداوله بدون إذن خطي ©

شعر باهتزازة في جسده، وفتح عينيه على مضض، فقد اجتاح الألم رأسه، فرأى وجه شاب نحيف أسمر يتفرس فيه، وبدت عيناه السوداويتين ترمقانه بنظرة متعجبة

سأله الرجل بنبرة جافة:

- هل أنت بخير أيها الغريب؟

نظر إلى أذني الرجل الكبيرتين مفكرًا: ليس هناك من هو أغرب منك، لكنه أجابه متأوهًا بينما ألم رأسه يكاد يفتك به: لست على ما يرام

- ما الذي أصابك؟

حاول جاهدًا أن يجد إجابة داخل رأسه لكنه لم يجد فقال: لا أعلم

سأله الرجل: ما اسمك؟

ازداد ألم رأسه وكأن المطارق تضربها فتفتتها، وبدا عقله فارغًا كصفحة بيضاء، وشعر بأن هذا الفراغ يلتهمه, فرد خائفًا كطفلٍ أضاع والديه: لا أعلم.. لا أعلم من أكون ربت الرجل على كتفه ليطمئنه قائلا:

لا تقلق ربما قريبًا سوف تتذكر، أنت فقط تحتاج لبعض الراحة، هيا تعال معي

- إلى أين؟
- إلى منزلي، فهنا ليس آمنًا

مد الرجل يده لذلك الغريب الفاقد لذاكرته، فاستعان بها الأخير ليستوي واقفًا، سارا وسط أرض فسيحة خضراء سرعان ما قطعاها، ليسيرا بعد ذلك في شوارع ضيقة مزدحمة بالبيوت التي بدت قديمة ومتهالكة وتفوح منها رائحة أطعمة تنبئ بأنها ليست شهية على الإطلاق, فما أن كادت تصل لأنفه حتى شعر بالغثيان، وبعد عدة انحناءات وقفا أمام منزلٍ ما، فتح الرجل الباب الخشبي للمنزل فدلفا داخله، بدت الإضاءة بالداخل أقل وضوحًا، لكن

سرعان ما أصبحت جيدة عندما فتح الرجل أحد النوافذ، فاقتحم ضوء النهار ظلمة البيت فأضاءه..

استدار الرجل قائلا: ادخل لا تخف

حينها كان الغريب يقف لدى الباب يتفحص المنزل الذي بدا عتيقًا وتفوح منه رائحة الأتربة، تقدم خطوات بطيئة فرأى في أحد الجوانب سرير خشبي مغطى بملاءة مهترئة وقبالته تحت النافذة استقرت أريكة متربة نسج العنكبوت خيوطه الواهية على أحد جوانبها، أسرع الرجل ينظفها قائلا:

عذرًا على هذه الفوضى فقد كنت متغيبًا لوقت طويل عن البيت، وتلك فرصة لهذه الكائنات المتطفلة لتحتل المنزل بعد أن أزال خيوط العنكبوت ونفض الأتربة قال بينما يسعل: استرح هنا جلس الغريب على الأريكة، فنظر الرجل لثيابه المهلهلة

قائلا: سأحاول أن أعثر لك على ثياب تناسبك فهذه الثياب التي ترتديها لن تقيك البرد اختفى الرجل بالداخل بينما قاوم الغريب رغبة ملحة في الاستسلام للنوم، لكنه بالنهاية استلقى على الأريكة وبدأ إدراكه للأشياء يتلاشى، في المرة الثانية التي فتح فيها عينيه كانت الغرفة تغرق في ظلام دامس ولم يكن للرجل وجود، بعد لحظات فُتح الباب ودخل الرجل فأشعل قنديل زيتي بعث بإضاءة خافتة في أرجاء المنزل، أبصر الغريب الثياب إلى جواره فالتفت إليه الرجل قائلا:

- هذا ما استطعت انتقاءه

لاحظ الغريب تغيرًا في ملامح الرجل وكأنه كبر فجأة فقد شاب شعره وتجعد وجهه

فكر الغريب: لعلني لم أتبين ملامحه، أو ربما نسيت كيف كان شكله

وعندما شعر بالبرد أمسك الغريب بالثياب واحتضنها غير مدركًا ماذا يفعل فأشار له مضيفه ناحية ممر ضيق يفضي للداخل

- هناك مرحاض في آخر الردهة يمكنك الذهاب إليه

على عجل قام الغريب وذهب ليبدل ثيابه، عندما عاد وجد مضيفه يجلس على الأريكة وبيده سيجارة مشتعلة بينما على طاولة أمامه يوجد بقايا طعام، كانت أمعاء الغريب تقرقع طلبًا للطعام فجلس إلى جواره وبدأ على استحياء في الأكل، لم تبدِ على الرجل أي ردة فعل مما جعل الغريب يأكل بارتياح، بعدها مد الرجل يده للغريب بسيجارة قائلا: أتدخن؟

هز الغريب رأسه نفيًا لكنه لم يكن يدرك حقا إجابة هذا السؤال، لكنه أدرك فيما بعد أنه فعل الصواب فما كان يطيق رائحة الدخان الذي يخترق أغشية أنفه ورئتيه ويجبره على السعال وبات يشعر بالاختناق وكأن أحد ألقى بحفنة من التراب في جوفه

وعندما لاحظ الرجل ذلك؛ أطفأ السيجارة بينما يحدثه:

هل تذكرت من تكون ؟

هز الغريب رأسه نفيًا بينما يحاول ملء صدره بالهواء النقي ثم قال: لا أتذكر شيء بل أشعر أن ذاكرتي قد مُحيت

رد الرجل: يبدو هذا مرعبًا, أن تستيقظ يومًا وأنت لا تعلم صديقك من عدوك، من يحبك ومن يكرهك، ومن تكون

- نعم أنت محق
- ولكن لابد لك من اسم لأناديك به، لا يمكنني أن أظل أناديك بالغريب طوال الوقت

ولمَ تقول أني غريب؟

أجابه الرجل: ملامحك توحي بذلك أنت لا تشبه أهل هذه الأرض، يبدو واضحًا للغاية أنك لا تنتمي إلى هنا

- إذًا لأي أرض أنتمي؟
- لست أدري
- ولكن ما اسمك أنت؟ سأل الغريب

رد الرجل: أدعى أنيس

وأي اسم ستطلقه علي يا أنيس؟

سأل الغريب بينما ترتسم على شفتيه نصف ابتسامة

"دعني أفكر" قالها أنيس قبل أن يصمت لبضع لحظات ثم عاد يقول: لقد وجدت لك اسم يليق بك

وما هو؟

- "فهر"
- وكيف يليق بي؟
- إنه يعني المتعب أو من أصابه تعب شديد وإني أراك كذلك

اقتنع الغريب بالاسم وشعر أنه يمثله حقًا، لكنه عاد يسأل أنيس:

ولكن في أي أرض أنا؟

رد أنيس: مرحبًا بك في أرض النوايا حيث تكون جوهرك وتحاسب على نيتك

"أحاسب على ماذا؟ على نيتي!" قال فهر متعجبًا

قفز أنيس من موضعه قائلا:

هذا أمر يطول شرحه وأنا أشعر بالنعاس

ثم تمدد على السرير قائلا: بإمكانك النوم موضعك ولا تفكر بدخول تلك الغرفة الداخلية

أومأ فهر برأسه بينما ينظر لجميع الأشياء المكدسة حوله

فقال أنيس: ربما تتساءل لمَ أكدس جميع هذه الأشياء بالمدخل بينما هناك غرفة أخرى بالداخل! وربما تكون فارغة أيضًا ولكني أؤكد لك أنها ليست كذلك، فهي باتت مرتعًا للجرذان والكائنات المتطفلة الأخرى منذ أن هجرها والداي

- هجراها؟
- انتقلا إلى أرض الموتى، أتعرف أرض الموتى يا فهر؟

ولكن قبل أن ينبس فهر بكلمة, قال أنيس:

يا لغبائي! كيف لك أن تعرف أرض الموتى وأنت لا تتذكر حتى من تكون؟!

رد فهر:

أعلم الموت، ولكن ما تكون أرض الموتى؟

أجابه أنيس: إنه المكان الذي يخافه الجميع، ولا يعلم أحد عنه شيء فكل من ذهب إلى هناك لم يعد يومًا، لكننا جميعًا إليه ذاهبون، فوجودنا هنا مؤقت تمامًا كوجود تلك السيجارة بين أصابعي

- ولكن هل يعلم أحد متى الرحيل؟

امتص السيجارة بين شفتيه بقوة ثم نفث دخانًا كثيفًا بينما يقول: هذا ما لا يمكن معرفته ثم سعل بشدة بينما يأخذ جرعة أخيرة من سيجارته المتهالكة، وبدا شاحب للغاية وكست التجاعيد وجهه

فألقى أنيس بالسيجارة أرضًا بينما يقول:

أعلم أنكِ سوف تتسببين في مقتلي يومًا ما، لكن بضع أيام وساعات تضيعينها من عمري, هذا ليس بالشيء الكثير ثم نظر إلى فهر وحدثه: هل أخبرتك أننا نحاسب هنا بالأعمار؟ أظن أني أخبرتك أننا نحاسب على النيات ولكني لم أخبرك كيف

- لا لم تخبرني، قلت أنك تشعر بالنعاس

فعاد أنيس يقول: حسنًا لقد جافاني النوم الآن، لكن نظام أرضنا شيء كنت ستعلمه عاجلا أو آجلا ولكن دعني أوضح لك حتى لا تتورط في شيء، فهنا لايسعك الكذب دون أن ينكشف أمرك، كما أن جرائمك جميعها وآثامك تُعاقب عليها قبل حتى أن تقترفها

فمجرد التفكير بالإثم يستحق العقوبة، ولن تكون عقوبتك السجن أو التعذيب بل ما هو أسوء من ذلك،بنقص السنوات حاول فهر استيعاب ما يُقال لكنه فشل فسأله:

كيف هذا؟

أجابه أنيس: كل إنسان منا لديه مدى زمني ليحيا فيه قد يكون ثلاثون، خمسون, أو ستون عامًا أو ما يزيد عن هذا،أو ما قل،وهذا المدى الزمني مقسم لمراحل: وهي الطفولة والشباب والشيخوخة وهنا عندما تصل لمرحلة الشباب تبدأ أرضنا بمحاسبتك على نياتك الخيرة والشريرة منها، فتزداد سنوات شبابك إذا قمت بعمل صالح وبالتالي تقل سنوات الشيخوخة أما إذا قمت بعمل سيء أو حملت نية سيئة فسوف تشيخ سريعًا وكلما ازدادت أعمالك السيئة ازددت كهولة إلى أن تقضي نحبك، أنت فقط إما أن تعجل بموتك أو بإمكانك أن تتجنبه

- هذا يعني أن الجميع هنا أتقياء؟

ضحك أنيس ملء شفتيه ثم قال:

أنت ساذج للغاية يا فهر فالجزم بأن الجميع هنا أتقياء هو نوع من الخبل،فالكل هنا لا يريد إلا أن يبقى حيًا وشابًا لا أكثر، وهذا يتم بإحدى

الطريقتين:

الأولى هي أن تحاول القيام بعمل جيد لتستعيد به جزء من صحتك وشبابك وهذا يحتاج لوقت طويل وأعمال صالحة متكررة دون فعل أي شيء خاطئ, وبالنهاية سوف تحصل على سنوات قليلة مما أخذت منك

والطريقة الثانية؟

- تلك خطيرة للغاية ولن تجدها إلا في مكان واحد دون غيره، ففي ذلك المكان يستخدمون ترياق يُعطى

لمن يريد بيع سنواته

- ومن ذا الذي يريد بيع سنواته؟

رد أنيس: كثيرون، فبعض التعاملات بهذا المكان لا تكون إلا بالسنوات، أو أنهم يريدون الحصول على بعض المال وهذه أسرع طريقة للكسب، معتمدين على أنهم سيحصلون على السنوات عن طريق أعمال صالحة سيقومون بها فيما بعد

- وفي ذلك المكان ماذا يفعلون بالسنوات التي يأخذونها من الناس؟

قال أنيس: عندما يأخذ أحدهم الترياق يبدو وكأنه سقط في غيبوبة ثم يستنزفون سنواته ويخزنوها في زجاجات مرقمة تحمل اسم صاحبها، ثم يأخذون تلك القناني الصغيرة ويبيعونها لأشخاص آخرين سيدفعون فيها المال الكثير

- تبدو فكرة جيدة لمن يود أن يبقى شابًا

- لا أنت متوهم, فهذه السنوات لها أصحابها، وإنها منتزعة منهم وتحمل صفاتهم، فإذا حصلت على سنوات أحد غيرك لابد أن تحمل جزء من صفاته، ثم أن مفعولها لا يدوم طويلا فخمس

سنوات لشخص آخر هي عام أو اثنين لديك، وإذا انتهى مفعولها فأنت تكبر أعوامًا عما كنت عليه، بالنهاية سوف تكون مدمنًا للسنوات المستعارة ولن تستطيع أن تحيا بدونها

- وأين هذا المكان الذي تباع فيه السنوات؟

إذا أخبرتك فسأكون قد ارتكبت إثمًا, لذا لا يمكنني إخبارك تثائب أنيس ثم غط في النوم، بينما ظل فهر يفكر ثم استلقى وأغمض عينيه هو الآخر في محاولة للنوم لكنه ما إن أغمض عينيه حتى سمع صوت بابٍ يتردد في أذنيه، ظن أن الصوت آتٍ من الخارج فتوجه نحو الباب وفتحه, فصدمه تيار من الهواء البارد جعل جسده يرتعش تقدم بضع خطوات نحو الخارج ولم يكن إلا السكون يجتاح المكان فقد خلت الشوارع من مرتاديها

نظر يمنة ويسرة لكنه لم يجد شيء فعاد أدراجه، وما أن استقر على الفراش وأغمض عينيه حتى عاد الصوت الباكي ليجتاح رأسه، فتح عينيه فاختفى الصوت، ارتدى معطفًا وأسرع يتجول حول المنزل ليعرف مصدر الصوت لكنه لم يجد شيء، كانت الشوارع خالية، ابتعد كثيرًا وخشي أن يضل طريق العودة، فرجع للمنزل وجلس على الأريكة وقد كان متأكدًا أن الصوت الباكي يصدر من رأسه، ظل مستيقظًا لكنه غفا فجأة، وعندما فتح عينيه كانت أنوار الصباح تطل من النافذة، نظر حوله فلم يجد أنيس، شعر بالظمأ فأخذ يبحث عن شربة ماء فلم يجد سوى زجاجة نصف ممتلئة وضعت على أحد الأرفف, مد يده يلتقطها وما إن فعل حتى سمع أنيس يصرخ:

إياك أن تقترب منها هي ليست ما تظن

التفت فهر قائلا: ما هي إذًا؟

أجابه بينما يجلس على الكرسي وينفث دخان سيجارته

إنها زجاجة خمر كانت هنا منذ أمدٍ بعيد, أحتفظ بها من أجل الذكرى، تلك الزجاجة تكبرني سنًا, إنها بعمر هذا البيت

صمت برهة ليلتقط أنفاسًا من سيجارته ثم عاد يقول:

إياك أن تظن أني أشرب الخمر, هذا إثم لا يمكنني تحمل عواقبه

- لكني عطشان أيوجد هنا ماء؟

ناوله أنيس كوب الماء فازدرده دفعة واحدة وبينما هم جلوس على الطاولة يتناولان طعام الإفطار, لاحظ فهر أن وجه أنيس عاد ليبدو شابًا مرة أخرى واختفى الشيب من رأسه فقال له فهر:

أراك قد أحسنت عملا فهذا يبدو جليًا في ملامح وجهك

رد أنيس: ربما لم أحسن العمل بعد ولكني أحسنت النية

وماذا تنوي أن تفعل؟

رد أنيس: سوف أساعدك لتحصل على عمل فما عاد بإمكانك المكوث هنا بعد الآن

- لمَ؟

لأني مسافر وأقرباء لي سوف يسكنون بالبيت أومأ فهر برأسه إيجابًا مدعيًا التفهم وهو في قرارة نفسه مرتاب أشد الريبة فقد بدأت ملامح أنيس بالتبدل عندما نطق جملته الأخيرة

سأل فهر: وماذا يعمل صديقك؟

إنه حمال, ينقل البضائع من المخازن إلى العربات وسوف تساعده أنهيا وجبتهما واتجها إلى صديق أنيس الذي استقبلهما هاشًا باشًا، كان رجلا بدينًا يهتز جسده كلما خطى خطوتين، لكن له ابتسامة لا تفارقه تجعل من يقابله للمرة الأولى يرتاح له على الفور، سرعان ما رحل أنيس وهو راضى عن نفسه فها هو يساعد أحدهم للمرة الأولى منذ سنوات عدة، ولكنه فكر أن وقته

انتهى على هذه الأرض ووجب عليه الرحيل إلى أرض أخرى يجد فيها السلام ، قد ترك فهر لدى الرجل الذي شرح له ما عليه فعله، والأجر الذي سوف يتقاضاه نظير عمله، بعد ذلك وقف فهر وحيدًا في ساحة ازدحمت بالعربات والرجال على حدٍ سواء وتساءل: أي قدر دفعه للتواجد هنا؟

سمع الرجل يناديه: هيا يا فهر فهناك الكثير من الصناديق التي عليك نقلها تبعه وبدأ في عمله يحمل الصناديق المثقلة بالبضائع من المخزن إلى العربات ومن العربات إلى المخزن انقضى نصف النهار وهو على هذا الحال، حتى جاءت فترة الاستراحة, فجلس منزويًا بركن بعيد على إحدى الطاولات بينما وُضع أمامه خبز وجبن, لكنه لم يطعمهما بل مال بجسده المتهالك على الطاولة، وشعر به يأن ألمًا من كثرة الأثقال التي اضطر لحملها عنوة

وبعد حين اقترب منه أحدهم وهز كتفه وقال بصوتٍ رقيق: إن لم تأكل فلن تقوى على العمل رفع رأسه ليتبين محدثه, فوجدها امرأة جميلة قد غزت وجهها التجاعيد، لكن بعينيها بريقًا جذاب تساءل فهر: ترى أذلك عمرها الحقيقي؟ أم أنها أجرمت في شيء ما؟

حينها جلست قبالته قائلة: ما بك لا تجيب هل أكلت القطة لسانك؟!

رد سريعًا وكأنه يحاول نفي التهمة الملقاة عليه: لا, ولكني متعب، يبدو أن هذا العمل لا يناسبني فقد أحنى ظهري

ردت: إن ينحني ظهرك من العمل أفضل من أن ينحني من العَجز, ألا توافقني الرأي؟

- نعم ولكن العجز أمر مبكر الحديث عنه, قالها فهر ظنًا منه أن قول أنيس لا ينطبق عليه

نظرت إليه المرأة بريبة ثم قالت: أن تشيخ لهو شيء أقرب إليك من لمح البصر, يكفي فقط أن تدور برأسك فكرة سيئة حينها سيظهر في ملامح وجهك

- وما الحل؟ هل علينا التوقف عن التفكير؟
- ردت: ليتنا نستطيع إيقاف أدمغتنا عن التفكير ، فهذا يبدو مستحيلًا، إلا أن البعض استطاع كبح جماح نفسه وتقويم أفكاره
- سألها فهر متلهفًا: كيف؟

أجابته متململة: وما أدراني؟ فإن كنت وصلت لهذه المرحلة ما رأيتني على هذا الحال!

ثم أشارت بإصبعها نحو الطعام قائلة: أسوف تتناول هذا؟

هز رأسه نفيًا

بإمكاني أن أحصل عليه أليس كذلك؟

نعم, خذيه إذا أردتِ

أسرعت تلملم الطعام وقبل أن تذهب سألته

ما اسمك أيها الغريب؟

تردد في الإجابة ثم قال: لست أتذكر من أكون ولكن ينادوني هنا بفهر

تلفتت حولها قبل أن تقول همسًا: ربما ستجد في الحان علاج لمشكلتك، يُقال أنهم هناك يجدون حلًا لجميع المشكلات

"وأين ذلك الحان؟"

لم تجبه وأسرعت بالذهاب قائلة:

شكرًا على الطعام

عاد للعمل مجددًا وبدت الصناديق هذه المرة أثقل وأخذ يعاني أكثر في حملها، لكنه كان مجبرًا على مواصلة العمل حتى المساء، وعندما حل المساء كان واهنًا أشد الوهن، مضعضع الجسد، خائر القوى..

أعطاه صاحب العمل بضع عملات، وسمح له بافتراش المخزن للمبيت هذه الليلة، وما أن أسلم جسده للفراش وأغمض عينيه حتى اجتاح رأسه ذلك الصوت الباكي

فتح عينيه على وسعهما وقد دب الخوف بقلبه وأخذ يتساءل:

ما مصدر هذا الصوت ولمَ أسمعه كلما أغمضت عيني؟

قام من مجلسه وأخذ يتجول في الساحة التي ركنت بها العربات وتبعثرت بها الصناديق الفارغة وعند البوابة جلس بضع رجال يتسامرون، مر بهم فسألهم: هل يعلم أحدكم طريق الحان؟

توقفوا عن الحديث وحدجوه بنظرة مرتابة، لكن سرعان ما عادوا لحديثهم مرة أخرى كأن شيئًا لم يكن!

خرج فهر من البوابة وابتعد عنهم، لكن بعض حديثهم قد وصله فقد سأل أحدهم: من هذا الغريب؟

فأجاب آخر: لقد عثر عليه أنيس في الأجزاء الشمالية

فتحدث آخر: هل رأيتم أذنيه؟

فقال أحد الحاضرين: وهل كانت له أذنان؟

فضحكوا جميعهم، تركهم فهر يسخرون منه ورحل عنهم مبتعدًا، توغل داخل الشوارع المزدحمة بالبيوت بدت الإنارة ضئيلة متذبذبة، والهدوء خيم على كل شيء تابع سيره وقد بدت له المدينة كمدينة موتى، إلا أنه سمع فجأة صوت صراخ، تتبع الصوت فوجد رجلين يتعاركان في أحد الأزقة المظلمة، أحدهما ضخم الجثة يمسك بالرجل الآخر النحيف من تلابيبه، وذلك الرجل النحيف يصرخ متوسلًا الرحمة فكر فهر أن عليه إنقاذ الرجل المسكين؛ وتقدم مسرعًا وكور قبضته ثم وجه ضربة قوية في وجه الرجل الضخم

جعلته يتقهقر بينما يضع يده على أنفه الذي ينزف دمًا مما أتاح للرجل الآخر الهرب مسرعًا بدأ الرجل الضخم يأن متألمًا ثم صرخ بوجه فهر:

لابد أنك شريكه

وحاول الرجل أن يمسك بفهر لكنه لم يقوَ على ذلك من نزيف أنفه ثم اتكأ على الحائط قائلا:

ما الذي تريده مني؟ لقد أخذ صديقك كل ما لدي, حرى بك أن تسرع لتتقاسمه معه، أم أنك تريد قتلي؟

- "لا..لا ..لا أريد ذلك" أسرع فهر مجيبًا

ثم عاد يقول: لقد أردت المساعدة

فقال الرجل مغتاظًا:

أي مساعدة! لقد أعنت السارق على أخذ مالي

فقال فهر: لقد حسبت أنك تؤذيه وبأنه رجل مسكين

فتحدث الرجل حانقًا:

ذلك المسكين هددني بسكين وعندما قاومته أصابني بجرح في يدي

مد الرجل يده المصابة لفهر، فرأى فهر الدماء تنزف منها

ثم عاد الرجل يقول: لقد كدت أتغلب عليه لولا أنك جئت وأفسدت الأمر

- عذرًا يا سيدي لم أقصد، لم أرد إلا المساعدة

تميز الرجل غيظًا بينما يجيب: كان يجدر بك أن تتبين الأمر جيدًا قبل أن تقرر في أي صف سوف تقف

هم الرجل بالرحيل فسأله فهر:

أتدري أين يوجد الحان؟

رمقه الرجل بنظرة محتقرة ثم أجابه:

بعد شارعين من هنا ستجده ثم تركه في الزقاق المظلم ورحل، خرج فهر وسار حتى وجد بيتًا كبيرًا من طابقين يقبع وحيدًا، ويتلألأ في وسط الظلمة فأدرك أنه الحان، حاول الدخول لكن الحارسان على بابه منعاه، فكاد أن يعود أدراجه لولا أن لاقاه رجل فسأله: إلى أين أنت ذاهب؟

فأجابه: الحارسان منعاني من دخول الحان لذا سأرحل

أمسك به الرجل قائلا: انتظر سأدخلك, كيف لهما أن يمنعانك؟ بل علينا إكرام الغرباء بأرضنا

بالحان أجلسه الرجل على طاولة وغاب عنه لخمس دقائق, أخذ فهر خلالها يتفرس في وجهه بمرآة علقت في واجهة الحائط أمامه, بينما يفكر لمَ كلما رآه أحد دعاه بالغريب، كان وجهه شاحب بعض الشحوب عزى ذلك لأنه جائع، فمازال وجهه يتمتع برونق الشباب على عكس أولئك الجالسين على الطاولات حوله فجميعهم تغزوا وجوههم التجاعيد والشيب اشتعل برأسهم، كان شعره متناثرًا فسوى بيده خصلات شعره الأسود وأعادها لمكانها، بينما مسح وجهه المتسخ بمنديل أمامه عاد الرجل وجلس إلى جواره وسأله:

ما اسمك أيها الغريب؟

رد: لا أتذكر

- هل تتذكر أي شيء عن حياتك السابقة؟
- لا أتذكر أي شيء, لكن قيل لي أن بالحان سأجد من يساعدني، هل بإمكانكم أن تعيدوا لي ذاكرتي؟

نظر له الرجل ثم سأله:

من أخبرك أن بإمكاننا مساعدتك؟

- امرأة ما
- وما اسمها؟

- رد فهر: لم تخبرني اسمها

"حسنًا تعال معي" قالها الرجل بينما يقوم من مكانه فتبعه فهر، وقبل أن يصعدا الدرج نادى صوت

نسائي: يا نافع!

فالتفت الرجل إلى جواره مجيبًا ثم تركه، كانت المرأة تقف بعيدًا فلم يتبين فهر أهي تلك المرأة التي حدثته هذا الصباح أم أنها واحدة تشبهها, فقد شعر أنه رآها من قبل، عاد إليه نافع وصعدا الدرج وبالغرفة أجلسه

ثم سأله: منذ متى وأنت بأرضنا؟

أجابه: يوم وبضع ساعات

وأين كنت خلال هذا الوقت؟

رد:لقد وجدني شخص يدعى أنيس وأخذني لبيته

"أنيس فعل ذلك؟!" قالها نافع متعجبًا

- أتعرفه؟

أجاب نافع: بالطبع لقد كان صديقًا لي

- لقد أكرمني صديقك حقًا فقد أطعمني وأواني كما أنه أطلق علي اسم فهر
- دعاك بفهر!
- نعم وأوجد لي عمل
- رائع لقد أصبح أنيس رجلًا صالحًا, وماذا فعل لك أيضًا؟
- لم يستطع أن يقدم لي أكثر من ذلك, فلقد أخبرني أنه مسافر
- أنيس سوف يسافر! لم يخبرنا لنودعه
- وهل أخبرك إلى أين سيذهب ؟

- لا
- فكر نافع بصوت عال: تريد الهروب يا أنيس دون أن تعيد إلي حقي ،سنرى بهذا الشأن

لم يعلق فهر على ماسمع ولكنه علم أن هناك أمر ما عالق بين أنيس وهذا الرجل ولعل هذا ما جعله يتخلص منه سريعا ويذهب ،

صمت الرجل برهة ثم عاد يقول:

- حسنًا يا فهر الغريب, ماذا كنت تريد؟
- أجابه فهر: أريد استعادة ذاكرتي
- حسنا سأعطيك مشروب سيعيد لك ذاكرتك ولكنك ستشعر ببعض التعب
- لابأس بالتعب إذا كنت سأستعيد ذاكرتي
- فتحدث نافع: ولأنك صديق صديقي فأنا سأدعوك للعشاء أولًا, ثم بعد ذلك أعطيك العلاج

أحضر الخدم العشاء وتناولاه سويًا، ثم أحضر نافع زجاجة وصب منها كأس صغير وأعطاه لفهر والذي ما إن شربه حتى دار رأسه، أعطاه نافع كأسًا بعد آخروعند الكأس الرابعة كانت قوى فهر قد خارت وغاب عن الوعي شعر بهم يجرونه ويلقون به خارج الحان، والألم يجتاح جسده كله، ورأسه على حاله ما زال فارغًا ، علم حينها أنهم بالحان كانوا

يخدعونه، حاول العودة إلى مكان عمله لكنه ضل طريقه، أخذ يسير في الشوارع الخالية وبينما يسير سمع صوت قط يتعارك مع أحد الجرذان، كان القط المرقط يلاحق فأر بني كبير الحجم وسرعان ما مرا من أمامه واختفيا داخل شارع جانبي، أخذ فهر يفكر ترى من منكما على صواب؟ فأنت أيها

القط السمين ما حاجتك لملاحقة ذلك الفأر؟ فهل أنت جائع حقًا؟ أم أنك تود فقط اللعب؟ أو لعل الفأر يستحق القتل، فربما أزعج القط،أو لعله أتلف بعض الأثاث أو الثياب لدى أحدهم, فأطلق عليه قطه للتخلص منه، نهر نفسه على استكمال التفكير في أمر القط والفأر وهم بالرحيل لكنه سمع صرخة من الجرذ الذي كاد القط أن يلتهمه جعلته يتوقف ويتقدم نحو القط ويبعده عن الفأر، زمجر القط غاضبًا وكاد أن يغرس أنيابه في رجل فهر لكن ألقى فهر عليه حجر جعله يبتعد،عاد فهر للسير مجددًا فسمع في الظلمة صوت يحدثه:

يا هذا انتظر, إلى أين أنت ذاهب؟

التفت فهر لكنه لم يجد أحد؛ فواصل سيره فسمع نفس الصوت يحدثه مجددًا فنظر حوله وقد تملكه الرعب

فقال الصوت: أنا هنا بالأسفل

نظر أسفل قدميه فوجد فأر بني يحرك شاربيه وينظر مباشرة إليه ثم قال: مرحبًا

انتفض فهر رعبًا وركض مذعورًا, فلاحقه الفأر، ركض فهر في الأزقة المظلمة وقد كان أجهل الناس بها يزداد قلبه هلعًا كلما اقترب الفأر منه أو خاطبه، وبينما يركض اصطدم جسده بحائط هو نهاية الزقاق، حينها كان في مواجهة مباشرة مع الفأر الذي ابتسم لتيقنه أن لا مفر للغريب منه وأنه مجبر على الاستماع له، فكر فهر أنه لابد يهذي وأن هذا مفعول الشراب الذي ازدرده في تلك الحانة، اقترب الفأر أكثر فأكثر منه فركض هو الناحية الأخرى ليعاود الفأر مطاردته من جديد شعر فهر فجأة بجسده ثقيل وقدميه لا تحملانه وأنفاسه تحشرجت داخل صدره الذي بدا كمكينة خربة يستعمرها الصدأ من طول ركنتها، انطرح جسده أرضًا وسمع صوتًا يقول:

عليك التوقف عند هذا الحد ثم اعتلى الفأر قدمه فزحف فهر واتكأ بجسده على الحائط بينما تسلق الفأر صدره وتقابلا وجهًا لوجه وبدا الفأر أكثر استرخاءً من فهر الذي دلت قسمات وجهه على الفزع الشديد وأخيرًا تحدث الفأر قائلا:

لمَ كل هذا الهلع؟ بدوت وكأن أسدًا يلاحقك وصدقني لقد راقتني الفكرة وكدت أركن إليها، شخصًا بحجمك يفر هاربًا مني أنا! ضحك الفأر بشدة فأصدر صريرًا أزعج فهر أكثر من انزعاجه لأن فأر يقف على صدره يحدثه ثم تابع الفأر قائلا: ما بك؟ تبدو مشمئزًا أو خائفًا

لا تقلق لست أعض، إلا من يزعجني بالطبع، وأنت اليوم لا تزعجني فتحدث فهر مرتجفًا: ماذا تريد مني؟

- أريد أن أشكرك
- تشكرني على ماذا؟
- لقد أنقذت حياتي من براسن ذلك القط

ثم اقترب الفأر من وجه فهر يود تقبيله فلامست شواربه وجهه فصرخ فهر مفزوعًا:

ابتعد عني، أبعد يديك أو قدميك هذه عني, لا أريد منك شكرًا تراجع الفأر وقال متفهمًا وكأنه اعتاد مثل هذه الأمور:

تفضل أن يكون بيننا مسافة أليس كذلك؟

أومأ فهر برأسه، حينها قفز الفأر إلى قدم فهر قائلا:

أود أن أرد لك الدين, هيا اطلب ما شئت

- لكنك لست مدينًا لي بشيء!

رد الفأر: بلى أنا مدين لك بحياتي، وإني لأقدر حياتي بثمن غالي, لذا بإمكانك أن تطلب أي شيء وأنا سألبي

- لكني لست بحاجة لشيء
- تحدث الفأر مستغربًا:

الجميع ينقصهم شيء ما، هيا شغل عقلك الخرب هذا وفكر،هل أنت بحاجة لمال؟ جاه؟ بيت أو زوجة؟

قال فهر متعجبًا: كيف لفأرٍ أن يجلب كل هذا؟!

رد الفأر: للفئران طرقهم لا تشغل بالك

فقال فهر: لست بحاجة لأي شيء مما ذكرت تحير الفأر في أمره وقفز للقدم الأخرى لفهر ثم قال:

وجدتها, لابد أنه الشباب، تريد أن تعيد سنوات عمرك الضائع فيبدو على وجهك أنك ألقيت لتوك بعشرة أعوام في سلة المهملات, أي ذنبٍ اقترفت يا رجل؟

- لم أذهب سوى للحان
- وتلك مصيبة بحد ذاتها

قال فهر ببراءة: أخبروني أن بإمكانهم مساعدتي

لأعلم من أكون

- ألا تعلم من تكون؟ سأل الفأر في اهتمام
- أنا لا أتذكر أي شيء عن حياتي السابقة
- كيف حدث هذا؟

رد فهر: لست أدري.. فجأة استيقظت ووجدتني هنا

ولا أعلم أي شيء قبل هذا

- وفي الحان أخبروك أن الترياق سيعيد لك ذاكرتك؟
- نعم!

- وصدقتهم؟
- أجل لقد بدوا لي أشخاصًا طيبين!
- يا لك من ساذج! لقد كانوا يستدرجونك, فهذا الترياق الذي شربته للتو يسلبك سنواتك، كم جرعة أخذت أخبرني؟
- رد فهر: ثلاث ..لا بل أربع فقد أصروا عليّ لتناول الرابعة وخشيت أن أرفض

خشية أن ترفض أضعت عشرين عامًا من حياتك, فكل جرعة شربتها استنزفت خمس سنوات منك، أربع جرعات أخرى، وكنت سترقد صريعًا في مقبرتك قال فهر وقد بدا أكثر فزعًا مما كان عليه حين كاد الفأر يقبله: هل سألاقي حتفي قريبًا؟

رد الفأر يطمأنه: لا, ما زالت أمامك فرصة للنجاة

- كيف؟ أخبرني, ماذا علي أن أفعل؟
- عليك أولًا أن تكف عن السذاجة, ففي هذه الأرض وخاصة بينكم أنتم معشر البشر السذاجة هي الطريق السريع للموت
- لكني لست ساذج!
- رد الفأر: من قتلهم غبائهم قالوا كذلك هم أيضًا، لذا عليك أن تتبع تعليماتي دون مناقشات كثيرة

"حسنًا" قالها فهر منزعجًا من أن فأر يملي عليه ما يفعل

سأل الفأر: هل لديك مكان للمبيت أيها الغريب؟

انزعج فهر من هذا اللقب فقال: بإمكانك مناداتي فهر

قال الفأر: هل تذكرت من تكون؟!

- لا, هذا ليس اسمي، أحدهم اختاره لي

حسنًا يا فهر, هل لديك مكان يأويك؟

هز فهر رأسه نافيًا

قال الفأر: توقعت هذا هيا تعال, لدي مكان جيد لتبيت فيه

قام فهر مستندًا على الحائط وتبع الفأر الذي ما لبث أن تسلق أعلى جدار صغير وسار بمحاذاة فهر الذي سأله:

وهل تحمل اسم أيها الفأر؟

أجاب الفأر بينما يتبختر أعلى الحائط:

في عالم الفئران لا أهمية للأسماء بينما في عالمكم أنتم البشر لابد لكل شيء من مسمى

- هذا للتسهيل!
- فقال الفأر: لقد زدتم الأمر تعقيدًا فعلى سبيل المثال جعلتم من مكان المعيشة منزلًا وبيتًا، وأطلقتم عليه برجًا وقصرًا وقلعة أوَليس هذا كله مرادفًا للجحرالذي نعيش فيه نحن؟ حتى اننا لا نطلق على جحورنا أسماء، وليس لبني جلدتنا ألقاب يتباهى بها الواحد منا على أقرانه، وليس من الضروري أن نسمي أبنائنا, وعلى الرغم من هذا يعرف الواحد منا الآخر دون تكليف وأفضل حتى مما يعرف بعضكم البعض.
- وإذا أردت أن تنادي أحد أبنائك ماذا تفعل؟
- ليس لي أبناء لأناديهم

تحدث فهر حانقًا: أظن أني علمت من منا الأحمق هنا

استُفز الفأر فقال غاضبًا: ما الذي تعنيه؟

- لست أعني شيئًا، لكن باعتقادي أن المسميات تعطي للأشياء قيمة

- لذا تسعى لتعلم من تكون, لتعلم قيمتك

رد فهر: ربما, ولكن الأصعب من أن يجهلك الناس أن تجهل أنت نفسك فبالنسبة إلى الرأس فارغ والعقل خرب

رد الفأر بينما ينزلق نزولًا عن الحائط:

حسنًا يا ذا الرأس الفارغ ها قد وصلنا نظر فهر حوله فلم يجد أمامه إلا كوخ متهدم تفوح رائحة العطن من جدرانه التي تسابقت العنكبوت لتغزل خيوط بيتها الواهن في أركانه، كانت الظلمة قد ابتلعته فبدا من بعيد ككومة من الأخشاب المبعثرة تقدم الفأر ناحية الكوخ وتسلق النافذة التي لم يتبقَ من ستائرها البالية سوى خيوط, والتي كانت الشيء الوحيد الدال على أن هذا كان منزلًا لأحدهم يومًا ما قال الفأر بينما يحك وجهه بيديه:

هذا هو منزلنا أيها الغريب ألا يعجبك؟

رد فهر: إذا كنت فأر فسأعتبر هذا المكان جنة لكني لست فأر

- لكنك لا تمانع المكوث مع الفئران لبعض الوقت أليس كذلك؟

تحدث فهر: أنا متعب لدرجة تمكنني من المكوث مع غضنفر دون أن أكون منزعجًا فتح فهر الباب فإذا بجيش من الفئران يسبحون في العتمة والرائحة تشل الحواس، وتُخرج الأمعاء عن مستقرها تقهقر فهر للخارج قائلا:

أظن أني أفضل الحان

قال الفأر: ستعود لمن سلبوك سنواتك!

رد فهر: سويعات من البقاء في هذا الكوخ وسوف تسلب روحي

عاد فهر أدراجه بينما قفز الفأر للداخل، كان الطريق طويلا إلى الحان، وقدماه تؤلمانه للغاية، وجسده يتثاقل أكثر فأكثر وفكرة المبيت مع الفئران باتت تزعجه، وما يحزن قلبه أن من خدعه هو من ظنه منقذه

وبعد برهة وجد الفأر على أعقابه فسأله:

لمَ تبعتني؟

رد الفأر: لم أرد لك الدين بعد

- أنا متنازل لك عنه
- ليس بإمكاني قبول ذلك
- إذًا ما الذي تريده مني؟
- أن أصاحبك إلى أن أرد لك كامل دينك

"حسنًا افعل ما شئت" قالها فهر غير مبالٍ

تحدث الفأر: هل أنت متأكد من أنك تود العودة للحان؟

رد فهر: سأرجوهم أن يعيدوا لي سنواتي

قال الفأر غاضبًا: عليك أن تقاتل من أجل سنواتك ما أُخذ عنوة لا يُسترد إلا عنوة أو بالحيلة

- وما حيلتك أيها الفأر؟
- نتسلل إلى هناك ونسرق الزجاجات التي تحوي سنواتك
- هل يمكن فعل ذلك؟
- عليك المحاولة على الأقل
- لكن ألن تجلب لي السرقة المزيد من الشيخوخة؟!
- رد الفأر: أنت تستعيد حقك لا تسرق

"نعم صحيح" قالها فهر مقتنعًا بقول الفأر

ثم بعد برهة من التفكير عاد يقول:

سوف أسأله إياها أولا عله يرضى إعادتها

رد الفأر: حسنًا, افعل ما شئت، ودعنا نرى ما سيحدث

عادا إلى الحان، كانت الأضواء حوله ما زالت شديدة السطوع، تبينا من بعيد الحارسان اللذان وقفا كتمثالين أمام البوابة لا يجرأ أحدهما على مفارقة مكانه، تقدم فهر متباطئًا والخوف يدب بأوصاله ورعشة بيده تخون الثبات المصطنع على وجهه، عندما اقترب كان أحد الحارسين يشرب ماء فتحدث فهر قائلا:

أود الدخول

نظر إليه الحارس من أعلى الإناء الذي يتجرع منه الماء، بينما الآخر الذي بدا حديث السن لم يبدِ أي ردة فعل كأنه لم يسمعه

عاد فهر يقول: لي صديق بالداخل أود مقابلته

نظر له الحارس الكبير ثم أنزل كوب الماء وقال:

أي صديق؟

- نافع, لقد دخلنا أنا وهو منذ ساعة تقريبًا
- لقد رحل, وعليك أن ترحل أنت أيضًا

" أنا متأكد أنه ما زال بالداخل" قالها فهر بينما يدفع نفسه بجسد الحارس في محاولة منه للدخول فأمسك به الحارس من كتفه وأشار للحارس الآخر بأن يلقي به بعيدًا، فجرجره الحارس مبتعدًا عن الحان بينما حاول فهر الإفلات من قبضة الشاب الفولاذية التي كادت تسحق عظام كتفه، وبعد عدة أمتار دفعه الشاب فسقط أرضًا، ثم عاد أدراجه دون أن ينبس بكلمة، قام فهر عن الأرض ونفض ثيابه لم يجدا سبيلًا للدخول فتسللا للخلف ونظر فهر عبر النافذة بينما تسلق الفأر وجلس على حافتها، بالداخل رأى فهر رجال تحلقوا حول طاولات بينما تدور عليهم كؤوس من شراب بنفسجي اللون تحمله فتيات أجسادهن كغصنٍ بان ينثنين برفق فيضعن الكؤوس ثم يذهبن ليجلبن غيرها، يفعلن ذلك دون كلل أو ملل ودون أن تنسى إحداهن أن ترسل

ابتسامة أو نظرة إلى أحدهم, فما يلبث الرجل أن يتبعها فتىً قوي البنيان فيعود مضعضع الجسد خائر القوى مستنزف السنوات، بينما تخرج هي وقد ازدادت شبابًا وجمالًا كأنها حور خارج من الجنان، راقب فهر ذلك عن كثب فلفتت انتباهه إحدى الفتيات وقد كانت أكثرهن اجتذابًا للرجال، لها شعرًا كستنائيًا مموجًا وطويلًا ازدان بتاجٍ صغير من فضة ولها عينين زمردتين صافيتين كالزجاج, إلا أن نظرتها قاطعة للقلب كحد سيف آسرة للُب كفعل خمر، ابتسامتها ساحرة تكشف عن صف من اللؤلؤ المختبئ خلف شفتين مكتنزتين، ولها وجنتين بحمرة جمر، وطابعًا للحسن قد ازداد حسنًا فيها، أما جسدها فهو منحوتة ما خابت يد صانعها تكسوه بثوب زهري من حرير، تعلقت عيني فهر بها وأحبها عقله الذي استحسن صورتها، رآها تتجه نحو طاولة وكانت حتى في سيرها تبعث في النفس العُجب، وبدا فهر مسلوب العقل فأيقظه الفأر قائلا:

توقف عن النظر إليها وابحث عن صديقك

- أنظر لمن؟ تساءل فهر في براءة

فأجابه الفار: للحسناء ذات الشعر الكستنائي، إنها صورة مزيفة عن الجمال

- تلك مزيفة! إذًا ما الحقيقي على هذه الأرض؟ أنت!

كفاك إضاعة للوقت وابحث عما جئت لأجله

عاد فهر للنظر فصرخ قائلا:

ها هو نافع, إنه هناك

- أين؟
- أجاب فهر: ذات الشعر الكستنائي تقف إلى جواره
- ذلك الذي يلف يده على خصرها؟

"نعم إنه هو" رد فهر والانزعاج بادٍ في صوته

قال الفأر: هيا أسرع واطلب منه سنواتك

- لكنه هو من خدعني, أتظنه سيرضى بمساعدتي!
- إذًا أجبره على إعادتها
- لكنني لن أستطع دخول الحان طالما أن هذين الحارسين قائمان على البوابة

صمت الفأر برهة قبل أن يقول:

- لقد راودتني فكرة

قال فهر متلهفًا: أخبرني إياها

سأذهب انا لأشاكسهم وعندما يبدآن

بملاحقتي ويبتعدان عن البوابة تدخل أنت

- لكنك قد تتأذى! قالها فهر قلقًا

"لا يمكنهما الإمساك بي" قالها الفأر بثقة بعثت الارتياح بنفس فهر الذي قال: هيا باشر بتنفيذها

توجه الفأر مسرعًا نحو الحارسين اللذين اضطربا لما رأوه وحاولا دهسه بأقدامهما, لكن الفأر اندفع داخل سروال الحارس الكبير ذا اللحية الذي صرخ وتخبط كالمجنون وركض مبتعدًا لعله يستطيع إخراج الفأر

بينما يصرخ بالحارس الآخر:

أبعد هذا الفأر عني

هرول الحارس الآخر إليه وبدأ في ضربه لإخراج الفأر، ضرباته كانت قوية وموجعة بحيث صرخ الحارس ذو اللحية متألمًا: أيها المعتوه لا تضربني بل اضرب الفأر!

لكن الحارس الشاب لم يتوقف عن ضربه وكأنه اتخذ الأمر فرصة للانتقام وظل ثلاثتهم يتقاتلون بينما ركض فهر مسرعًا ودخل إلى الحان، حينها كان

الفأر يطل برأسه من أسفل ساق الرجل وعندما تأكد من دخول فهر فر مبتعدًا لينجو بنفسه، تاركًا الحارس الكبير ذا اللحية يتميز غيظًا وقد احمر وجهه من الغضب فقد رآه الحارس الصغير بينما يصرخ كالجبان خائفًا من الفأر، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد فقد أوسعه ذلك الحارس الصغير ضربًا، وفكر أن هيبته قد ضاعت، عادا لموضعهما ولم يجرؤ أي منهما على النظر في وجه الآخر بينما أصبح فهر بالداخل وتبعه الفأر عبر النافذة ثم وقف إلى جوار فهر قائلًا: لقد تخلصت منهما

نزل فهر وجلس بالأرض مدعيًا أنه ينظف حذاءه وقال للفأر: عليك أن تختبئ إذا رآك أحدهم سنكون في مأزق

- لكني لن أفارقك

فقال فهر:

حسنًا سأضعك بجيبي لكن لا تتحرك وإلا انفضح أمرنا

وافق الفأر فوضعه فهر بجيبه ثم نظر حوله يتحرى

موضع نافع، كان الهواء بالحان أكثر ثقلًا والصخب يلف المكان، جلس فهر على إحدى الطاولات إلى جوار الحائط بحيث أتاحت له زاوية الرؤية كشف المكان، بعد برهة تقدمت نحوه فتاة شابة وجميعهن هنا شابات، إلا أنها قصيرة للغاية لا ترتفع عن الطاولة إلا قدر سنتيمترات صغيرة، وضعت أمامه ذلك المشروب البنفسجي وكأنه المشروب الوحيد لديهم ثم قالت:

- بالمال أم بالسنوات؟

فكر برهة ثم أجابها: بالسنوات

نظرت إلية بريبة ثم سألته: متأكد!

- نعم, فأنا لا أمتلك المال

عادت تقول ونبرة عطف بدت في صوتها: لكن ليس لديك الكثير من السنوات لتنفقها، وهذا المشروب إنه لا يستحق

- هل يمكنني الجلوس دون أن أدفع شيء؟
- لا، يتعين عليك الدفع بإحدى الطريقتين حتى ولو لم تشرب شيء
- ليس بجعبتي إلا تلك السنوات القليلة لأدفع بها ثمن وجودي هنا

"كما يحلو لك" قالتها ثم تابعت بودٍ وقد خفضت صوتها حتى بدا كأنها تهمس: عليّ أن أحذرك لا تطل المكوث هنا وإلا لن تخرج على قيد الحياة

انقبض قلبه لحديثها, وسد أذنيه من فعل صراخها الذي ارتجت له القاعة: إنه سيحاسب بالسنوات على المشروب

التفت جميع من بالقاعة إليها ثم وجهوا نظرهم إلى فهر وهزوا رؤوسهم كمن أصيب بالخيبة, وكأنهم يستهجنون ما يقوم به، لكنهم عادوا إلى ما كانوا يفعلون كأن شيئًا لم يكن

تركته الفتاة ورحلت، بينما إلى جانب طاولته امتدت مرآة بطول الحائط فغر فهر فاهه عن آخره عندما رأى انعكاسه عليها فقد شاب شعره وذبل ووجهه وتكرمش كورقة خريفية أوشكت على السقوط حينها أخرج الفأر رأسه من الجيب وحدثه:

لقد كدت أختنق هل وجدت صديقك أم لا؟

كاد أن يجيب فهر على الفأر لولا أن استوقفه شجار حيث ألقى أحد الرجال بورق اللعب على الطاولة وأمسك بتلابيب نافع بينما يصرخ قائلا:

أنت غشاش ...لن أسمح لك بأن تستنزف سنوات أخرى منى

أجابه نافع بهدوء:

أنت من أردت اللعب والمحاسبة بالسنوات

رد الرجل:

لكنك تغش وهي تعينك على ذلك

ثم نظر الرجل بغل إلى الفتاة الحسناء ذات الشعر الكستنائي

لكن الحراس جاءوا وأبعدوا الرجل عن نافع وأحكموا وثاقه ثم أسقوه مشروب ثخين أسود اللون فارتمى الرجل أرضًا كخرقة بالية، ثم وضعوا يديه في إناء زجاجي على شكل أصابع، ثم بدأ يقطر من يديه في هذا الإناء سائل أبيض شفاف يتجمع ليخرج في النهاية عن طريق أنبوب مجمع ليسقط في قنينة زجاجية صغيرة، وكلما ارتفع السائل في القنينة ازداد الرجل شحوبًا وابيض شعر رأسه وتجعد وجهه، وعندما امتلأت القنينة كان الرجل قد تحول كليا إلى كهل يوشك على الاحتضار، حمله الحراس وألقوا به خارجًا، عاد الحان إلى حاله، بينما أخذ نافع القنينة وكتب عليها شيء ثم صعد السلم، فتبعه فهر، ورآه يدخل إحدى الغرف ويغلق بابها خلفه، كان الطريق خاليًا فأطل الفأر من جيب فهر قائلا:

إنها فرصتك ألحق به واستعد ما هو لك

تقدم فهر وفتح الباب فوجد نافع يقف أمام خزنة, ما إن لاحظ وجوده حتى قضب ما بين حاجبيه منزعجًا ووضع القنينة مسرعًا داخل الخزنة ثم أحكم إغلاقها بينما يقول:

ما الذي جاء بك إلى هنا؟

تقدم فهر نحوه قائلا:

لقد سرقت سنواتي وأود استعادتها

أجابه نافع ضاحكًا:

أتظنها ما زالت بحوزتي؟ لقد بيعت

اندفع فهر نحوه غاضبًا بينما يصرخ:

أيها اللص المحتال كيف تبيع ما ليس لك؟

دفعه نافع عنه فسقط على أريكة كانت إلى جوار الخزنة وأشار له بإصبعه مهددًا:

اذهب من هنا وإلا استنزفت منك ما تبقى من سنوات وتركتك جيفة تأكلها الضباع

توسل فهر: أرجوك أعد لي جزء من سنواتي وسأكون لك خادماً مطيعًا

زفر نافع بقوة وأشاح ببصره بينما يقول:

لست بحاجة لخدم لدي الكثير منهم، ثم أنك كهل لا

قيمة لك, فيمَ ستفيدني!

هذه المرة انقض فهر عليه وأحكم قبضته على حلقومه بينما يصرخ "سأقتلك" كانا قد سقطا أرضًا، وكان فهر يعلوه ويضغط بيديه على رقبته حتى كاد يختنق نافع، وفي تلك اللحظة فُتح الباب ودفع الآتِ فهر عن نافع مما أعطى فرصة للأخير أن ينهض مبتعدًا

كانت الفتاة الحسناء ذات الشعر الكستنائي هي من دفعت فهر، واقتربت بقلق تطمئن على نافع فسألته: هل أصابك مكروه؟

هز رأسه نافيًا وأجابها: لا أنا بخير

نظرت الفتاة لفهر بغضب قائلة:

لمَ فعلت هذا؟ ما الذي تريده؟

رد فهر: إنه لص, لقد سلبني سنواتي ويرفض إعادتها

قالت الفتاة: أنت تنازلت عنها

- لا لم أفعل, بل هو من كذب عليّ وادَّعى أن الترياق سيعيد لي ذاكرتي، وكأنه لا يكفيني أن أفقد ذاكرتي فأفقد سنواتي معها أيضًا!

كادت الفتاة أن تتحدث فقاطعها دخول حارس البوابة الشاب إذ اقتحم الغرفة بينما يلهث قائلا:

لقد جاء رجال الامبراطور, إنهم ينتظرونك بالأسفل

تلجلج نافع مجيبًا:

آه ..حسنًا، اذهب ..لا انتظر.. كم عددهم؟

رد الحارس بينما يحاول إحكام السيطرة على أنفاسه:

إنهم...ث ثلاثة

فقال نافع: اذهب وسوف ألحق بك

عاد الحارس مهرولًا بينما ألقى نافع نظرة على الفتاة فاقتربت منه وهمس قائلا:

الكمية المتفق عليها لم تكتمل بعد

همست بدورها: كم ينقصنا؟

- خمس سنوات أخرى
- أخبرهم أن ينتظروا ريثما نحصل عليهم
- رد نافع: رجال الامبراطور لا ينتظرون أحد

اقتربت من أذنه وهمست فنظر إليها باسمًا ثم قال:

أنتِ تجيدين إيجاد الحلول لكل أزماتي, ثم خرج من الغرفة، فاقتربت هي من الباب لتغلقه وقبل أن تحكم إغلاقه أتاها صوته بينما يهبط الدرج:

إنني أنتظركِ بالأسفل, لا تتأخري

ثم التفتت لفهر قائلة:

اجلس دعنا نصل لتسوية

أشارت إليه بالجلوس على طاولة بنهاية الغرفة تقبع أسفل النافذة، تراجع خطوات للوراء وجلس على الطاولة, بينما هي خلعت عنها القفاز الذي ترتديه ثم فتحت الدولاب الذي امتلأ بأرفف من الزجاجات فتناولت واحدة وصبت منها كأس بينما تسأله:

ما اسمك؟

حاول تبين ما تفعل لكنه عجز عن الرؤية فالإضاءة بالركن الذي تقف فيه خافتة وجسدها يحجب ما تفعله بيديها لكنه أجابها:

يُقال لي فهر

التفتت إليه وسألت متعجبة:

يُقال لك! وهل لك اسم غيره؟

- أجابها: ربما, لست أدري

تقدمت نحوه ثم وضعت الكأس أمامه قائلة:

وهل يجهل المرء اسمه!

- نعم إذا فقد ذاكرته
- تعني أنك لا تتذكر أي شيء مما كنت عليه؟
- نعم لا شيء أبدًا
- لكنك لا تنتمي إلى هنا, يبدو هذا واضحًا فلديك أذنان صغيرتان للغاية

ثم مدت يدها ولمست إحداها قائلة: هل بإمكانك السمع بهاتين الأذنين؟

اقشعر بدنه لفعلتها فمال برأسه بينما يجيبها:

على ما يبدو أني أستطيع وإلا ما كنت أجبتك!

- لكن من أي أرض أنت؟

سألت بينما تجلس على الكرسي إلى جواره

أجاب: أخبرتك لست أدري

أومأت برأسها بينما تشير للكأس قائلة:

لمَ لا تشرب؟

هز رأسه: لا أريد

اقتربت منه قائلة:

ولا حتى رشفة صغيرة من أجل ديالا؟

تحدث مرتبكًا بينما يقوم عن موضعه:

أين نافع؟ أريد أن أحدثه ..علي أن أستعيد سنواتي

حينها أمسكت يده ثم تسلقت يدها ذراعه، كان يتراخى لها كلما جذبته نحوها حتى خر راكعًا تحت قدميها, فلثمته إلى جوار شفتيه حينها جفت الدماء في عروقه وأطاعها عندما قدمت له الكاس قائلة: اشرب لتكتمل القبلة تناول يديها الممسكتين بالكأس وقرب الكأس من فمه فقفز الفأر على ساقه قائلًا: أيها المعتوه ستضيع سنوات أخرى من عمرك لأجل قبلة!

ارتجفت ديال مبتعدة فسقط الكأس وانكسر بينما أخذت تصرخ: الفأر.. إنه يتحدث!

عاد الفأر يحدث فهر موبخًا:

خدعك جمالها المزيف, انظر ليديها الباليتين وأنت ستعرف حقيقتها

نظر فهر ليديها فوجد أخاديد من التجاعيد تملأها ولها أظافر صفراء منحنية وكأنها مخالب، فُزع مما رأى بينما كانت هي ما تزال تلتصق بالحائط مندهشة من رؤيتها لذلك الفأر المتكلم

فقال الفأر: ماذا تنتظر؟ قم واجلب سنواتك من تلك الخزنة

قام فهر واقترب من الخزنة فوجدها مغلقة، نظر إلى ديالا فرأى من جيدها تتدلى سلسلة بنهايتها مفتاح صغير، وضعت يدها على المفتاح تخبئه

فقال فهر: افتحها وإلا جعلته يلتهمك

نظر الفأر لفهر متعجبًا لكنه فطن لحيلته فأومأ قائلا:

نعم من الأفضل أن تنفذي ما يطلبه وإلا جعلت منك وليمة لعائلتي

تأتأت مرتعبة: ح.. حسنًا أبعده عني وسأفعل ما تريد
اقتربت من الخزنة وأدارت بها المفتاح ثم ابتعدت ليفتحها لكن ما أن انشغل فهر بالبحث داخل محتويات الخزنة حتى اندفعت نحو الباب وخرجت ثم صرخت مستغيثة: يا نافع إنه يسرق الخزنة
سمع فهر وقع خطواتهم تركض قاطعة الدرج فارتجف رعبًا بينما يبحث، فجميع القناني تحمل أرقام وأسماء عشوائية وتعذر عليه العثور على ضالته لكنه أخيرًا وجد زجاجة مكتوب عليها فهر الغريب, فأمسك بها ووضعها بجيبه حينها كانوا يقطعون الممر وصولًا إليه
فقال الفأر:

- أسرع إنهم سيقتحمون علينا الغرفة في أي لحظة

رد مذعورًا: لا أجدها, لا أجد أي قنينات أخرى

- خذ أي واحدة ولنرحل
- لا انها لا تخصني ..أريد سنواتي فحسب

لكن الفأر قال: لقد أتوا, علينا الهروب

- كيف؟ لقد حُصرنا
- رد الفأر: اقفز من النافذة
- سأموت إننا على ارتفاع
- لن يصيبك مكروه ثق بي

حينها رأى الرجال يقفون لدى الباب, فألقى بنفسه من النافذة كان الظلام حالك بالأسفل فلم يرَ أحد من الناظرين بالأعلى ما أصابه فقد سقط على ظهره, تألم بشدة بينما يحاول النهوض لكن ألمه لم يكن يرقى بأي حال من

الأحوال لكسر أو إصابة بالغة, فقد سقط على كومة هائلة من القش، لكنه كان بالكاد يقوى على تحريك أصابعه

حدثه الفأر: انهض لا وقت للاسترخاء هنا فسوف يلحقون بنا

تحامل فهر على نفسه بينما يقول:

- كيف عرفت بأمر هذه الكومة الهائلة من القش؟

رد الفأر: هل حسبت أن تلك أول مرة أزور فيها الحان؟

قال فهر: لكن أخبرني لمَ فزعت ديالا هكذا لما رأتك تتحدث؟

رد الفأر: لأن الفئران لا تتحدث!

- لكنك تتحدث!

أجابه الفأر: وهل ظننت أن الجميع مثلي؟ أنا لا أشبه أحد ولا أحد يشبهني، أنا الفأر الوحيد الناطق على هذه الأرض

رد فهر: وأنا الوحيد الفاقد لذاكرته على هذه الأرض

قال الفأر حانقًا: يبدو أن كلا الوحيدين سيقضيان نحبهما الليلة إن لم يبتعدا عن هنا

سمعا صوت فركضا مبتعدين واختبئا خلف جدار وبحذر نظرا فوجدا نافع يصفع ديالا ثم دفعها لتسقط أرضًا، زحفت لتمسك قدميه بينما تتوسل بصوت نائح مبحوح:

سامحني أرجوك.. لم أكن أقصد لقد هددني الغريب وأجبرني على فتح الخزنة، أرجوك اغفر لي خطأي

- أنا لا أغفر، ولا أسامح من يخطئ في حقي، وعليكِ أن تكوني شاكرة أني تركت لكِ القليل من الحياة
- لكنك أخذت أهم ما أمتلك, كيف سأحيا الآن؟

"لست أهتم " قالها محاولًا إزاحتها عن قدمه لكنها ظلت متشبثة به بينما تنتحب:

سامحني أرجوك، أعدني للداخل ولن أرتكب أي أخطاء أخرى أقسم لك

ركلها فأفلتت قدمه، وبينما ظلت هي تبكى متمرغة في التراب استدار هو عائدًا, ثم بعد لحظات جاء الحارسان فحملاها وألقيا بها بعيدًا

قفز فهر والفأر من فوق الجدار وابتعدا بدورهما

لكن فهر وقف يسأل الفأر: أرأيتها بينما تنتحب؟

- وما دخلك بها؟ هي تستحق كل ما أصابها
- قال فهر: لكني تسببت لها بهذا لو لم أجبرها على فتح الخزنة ما كان طردها نافع
- كان سيطردها عاجلا أو آجلا, هي اختارت طريقها وعليها أن تتحمل نتائج اختياراتها
- لكني أشعر بالذنب, قالها فهر بأسى

كاد الفأر أن يرد لولا أنهم رأيا ديالا تسقط أرضًا بينما تسير ثم تفشل بمحاولاتها في النهوض؛ ركض فهر نحوها فصرخ الفأر:

إلى أين أنت ذاهب؟ عد إلى هنا

لكنه وصل إليها فوجدها منكبة على وجهها بالأرض عدل من وضعها, لكنه فزع لما رآها فقد شاب شعرها وتجعد وجهها وتهدل جفنيها وغارت عينيها واستكانت نظرتها القاطعة للقلوب، واضمحل خديها فأصبحا جلدًا

على عظم ويا ليت الجلد باقٍ على حاله! بل تدلى مترهلًا، واستحالت شفتيها الغضتين جلدًا ذابلًا متشققًا وكأن ماصة قد استخلصت عصارته، وطابع حسنها أضحى وادٍ مظلم تضيئه الشعيرات البيضاء، فلم يبقى لها سوى أنف قائمًا كحربة لم تفلح التجاعيد في غزوه, فأطلقت البثور السوداء لتشويهه

سألها: هل أنتِ بخير؟

نظرت إليه ولما أيقنت من يكون, قبضت بيديها الهيكليتين عليه بينما تقول بغل: أنت السبب، لولاك ما سرق سنواتي وأعطاها لرجال الامبراطور، لقد استنزف مني ما سرقت أنت ثم أكمل ما كان ينقصه وألقى بي، أنت السبب في كل هذا

أجاب مدافعًا عن نفسه: لم أسرق, لقد استعدت ما هو لي

قالت: وما ذنبي ليحدث لي هذا؟

حينها وصل الفأر فأجابها: لأنكِ أضمرتِ الشر لذا تستحقين ما أصابك

فصرخت: أبعد فأرك عني

"هيا اتركها ولنرحل" قالها الفأر

تردد فهر وهي كانت ما تزال تتوسله:

ساعدني أرجوك إنني أحتضر، إن تركتني ستأتي الضباع وتلتهمني حية

كان الفأر قد تقدم بضع خطوات لكن فهر مازال

بموضعه فنظر إليه قائلا: ماذا تفعل؟

رد فهر: علينا مساعدتها ثم أخرج من جيبه القنينة الزجاجية التي بدت مضيئة في الظلمة

صعق الفأر قائلا: ستعطى سنواتك لعاهرة! أجننت؟!

- لا يمكنني تركها تموت، لن أسامح نفسي إن فعلت
- ستعطيها كل ما بالقنينة؟
- لا ما تشد به عضدها فحسب

أومأت هي إيجابًا قائلة: نعم, القليل الذي يعيد إليّ صحتي فحسب

وعندما قرب القنينة منها تلهفت عليها والتقمها فمها بحيث لا تخرج منه إلا فارغة, لكن تبين فهر الأمر وناضل لاسترجاع قنينته وعندما فعل كانت قد قضت على نصفها

فقال الفأر بشيء من التقزز من فعلتها: بغيضة ماكرة حتى وهى تحتضر

ردت: اغرب عن وجهي

عاد الفأر يحدث فهر بغيظ وشيء من الشماتة: ألم أخبرك انها لا تستحق؟ هذا الصنف لا يؤتمن حاول فهر أن يظل على تفاؤله فأجاب:

لقد تبقى نصفها, هذا سيفي بالغرض ريثما أستعيد الباقي

كانت ديالا قد استعادت جزء من عافيتها فانتصبت قائمة بينما تقول:

وهل تظن أن باستطاعتك ذلك؟

- نعم فلقد حصلت على هذه, إذًا يمكنني الحصول على البقية

"هذه ضربة حظ لا أكثر" قالت ديالا بينما تشير إلى القنينة والتي لم تبعد ناظرها عنها لوهلة

- سنعود في وقت لاحق ونستعيدها

ضحكت ديالا فتكرمش وجهها أكثر ثم قالت:

لا يوجد لاحقًا فرجال الامبراطور في صدد أخذ كل شيء

ولعلهم يجهزون للرحيل الآن

سأل فهر: إلى أين؟

ردت: سيركبون الفلك ويبحرون عائدين لقصر

الامبراطور

- سأعترض طريقهم قالها فهر بجدية

فضحكت ديالا حتى ظهرت نواجذها أو ما تبقى منها، واختفت عينيها أسفل كومة من الجلد المترهل ثم قالت: تريد اعتراض طريق رجال الامبراطور! تريد مواجهة المترصدين يا ذا الأذنين الصغيرتين؟!

- وما المضحك في ذلك؟!

المضحك أنك مجنون, أخبره أيها الفأر

نظر الفأر إليها مجيبًا: أخبره هذا على الدوام لكنه لا يقتنع

- ومن هؤلاء المترصدون؟ ولمَ أخافهم؟
- ليس عليك الخوف منهم بل عليك الارتعاب
- إلى هذا الحد؟
- نعم وأكثر من هذا, إنهم لا يرحمون، ليس لهم قلوب كقلوبنا أو وجوه كوجوهنا، إنهم يأتون دائمًا ملثمين ويرحلون دون أن نراهم، لم يراهم إلا من وطأ أرض الخسة، وأرض الخسة عليها أسوار من حديد

تحدث فهر: أنتم تخافونهم لأنهم مجهولون

ردت ديالا: الجهل بهم خير، فمن عرفهم كان آخر شيء عرفه بحياته

- إذا لزم الأمر فسوف أحارب الشيطان نفسه لأستعيد سنواتي

نظرت ديالا إلى جسدها البالي وانتابتها الحسرة لما رأت ثدييها المتدليين كصرة نقود فارغة، لقد فقدت كل ذرة من جمال لديها, فقالت:

وأنا أيضًا أريد استعادة سنواتي, لن أبقى عجوز مقيتة هكذا للأبد

وماذا ستفعلان؟ سأل الفأر

أجابه فهر: سننتظر هنا إلى أن يظهروا ثم نتربص لهم ونستعيد سنواتنا

أومأ الفأر برأسه قائلا: فكرة رائعة بل وسريعة لقتل نفسيكما

ألديك افكار أخرى؟ سألت ديالا

- نعم ..سأرحل رد الفأر بينما يبتعد

صرخ فهر: إلى أين أنت ذاهب ألن تساعدنا؟

- لا.. لقد اكتفيت من الحماقة لهذا اليوم سأعود لجحري المظلم إنه أفضل ألف مرة من مرافقتكما

"أنت جبان" قالها فهر غاضبًا

رد الفأر بلا مبالاة: الفئران جميعها كذلك, لم تأتِ بجديد ولكنها على الأقل تدرك متى يتعين عليها الجبن لتنجو, أما أنت فأخرق يريد قتل نفسه، ولولاي لكانت هذه المرأة المشئومة استنزفت سنواتك وألقت بك كهيكل عظمي

رد فهر غاضبًا: جيد, لقد رددت دينك، يمكنك الذهاب الآن, فأنا ما عدت بحاجة إليك أو لنصائحك

- "وكأنك كنت تسمع أو تلقى لنصائحي بالا!" قالها الفأر بينما يبتعد ثم ابتلعته الظلمة واختفى

نظرت إليه ديالا قائلة: رحيله هو أفضل شيء, لقد كان فأرًا مزعجًا

نظر لها فهر ولم ينطق، ولم تمضِ لحظات حتى رأوا رجال الامبراطور يعبرون طريقهم، فركض فهر نحوهم صارخًا: أعيدوا إليّ سنواتي

لم يلتفت أحد إليه وظلوا مسرعين بأحصنتهم، لكنه ألقاهم بالحجارة وبدا يائسًا بينما يفعل ذلك

ركضت نحوه ديالا زاجرة:

توقف لن يرحموك إذا أصبت أحدهم بسوء

وبالفعل كان قد أفلت من يده حجرًا واستقر برأس أحدهم؛ فتوقفوا ونظر ذو الرأس المتألم خلفه، العتمة حجبت عن فهر رؤية الرجل عندما نزع لثامه، لكن فهر سمع صوت ارتد صداه في الأرجاء، وتبع ذلك ذبذبات أزعجت أذنيه،

وعندما نظر لديالا يسألها إذا كانت تسمع ما يسمع وجدها متخشبة في مكانها وعينيها تحدقان في اللاشيء بينما فمها مفتوح عن آخره, فسألها:

- ما بكِ؟

لكنها لم تجب كأنها لم تسمعه وظلت تردد:

يحيا الامبراطور، ويحيا رجال الامبراطور ثم ابتعدت في الاتجاه الآخر عائدة إلى الحان

صرخ بها فهر:

ماذا تفعلين؟! عودي إلى هنا

لكنه تركها وشأنها عندما تيقن أن لا فائدة من محادثتها

فتقدم نحو رجال الامبراطور وبيده الحجارة وصرخ:

أعيدوا إليّ سنواتي, أنتم لصوص

سمع الصدى يزداد وتزداد معه الذبذبات لكنه ظل يتقدم نحوهم أكثر فأكثر والغضب الثائر بعروقه يجعل الشرر يتطاير من عينيه بينما يرميهم بوابل من الحجارة وهو يصرخ: أعيدوا إليّ سنواتي ..أعيدوا إليّ سنواتي

كاد ذو الرأس المتألم أن ينزل عن جواده ليلقن فهر درس لكن زميله زجره قائلا:

اترك ذلك الرجل المجنون وشأنه, علينا الرحيل فلن يرحمنا الامبراطور إذا تأخرنا أكثر من ذلك

عاد الرجل وضع لثامه ووجهه لا يكاد يحول عن الجهة التي يصرخ منها فهر، لكنه أطاع زميله ورحل بالنهاية بينما ترك فهر يصرخ ويلقي بالحجارة في الظلام الذى يبتلعه كثقب أسود، وعندما تعبت يداه توجه نحو ديالا التي جلست بعيدًا وحدثها غاضبًا:

ماذا دهاكِ؟ لمَ ظللتِ تحيين الامبراطور ورجاله؟

- أنا فعلت ذلك؟ سألت مندهشة

"نعم " أجابها مستغربًا ثم تابع قائلا:

لما رحلتِ حرى بكِ مساعدتي

قالت بينما هي شاردة: لا أحد بإمكانه مواجهة رجال الامبراطور,لا أحد

- انهضي إذن قالها غاضبًا
- إلى أين؟

رد: سنلحق بهم

لكنهم سيبحرون في النهر, لن تستطيع اللحاق بهم

رد: سأحاول, ليس لدي شيء آخر لأفعله

تبعته راغمة إذ لا سبيل لها غير ذلك، تجولا في الطرق الخاوية لا يسمعان إلا وقع أقدامهما وأنفاسهما المتهدجة

والبيوت حولهما تتناثر مبتعدة كحبات عقد انفرط كانت ديالا تسير إلى جواره وكل ما تفكر فيه هو كيف تحصل على النصف المتبقي من القنينة

حدثت نفسها: سأنتظر حتى يغرق في النوم حينها ستكون فرصة لأحصل عليها، لكن ما الذي يمنعه عن ازدرادها دفعة واحدة؟ لمَ يبقي عليها داخل جيبه؟

ترى هل يريد اختباري؟

أخرجها من شرودها صوت يستغيث دفعها للنظر حولها ثم تبعت فهر بينما يدخل شارعًا مظلم فوجدا رجلًا ملقى على الأرض حسباه في البداية كومة من الثياب المتكورة, لكن دلهم على آدميته صوته الواهن المتألم الذي يستنجد، لمسه فهر سائلًا: مابك؟

فأطلق الرجل أنينًا طويلًا ارتجفا له فهر وديالا

ثم قال: ساعداني.. ساعداني

كيف نساعدك؟ سأل فهر

راجيًا قال الرجل:

أعدني للمنزل أريد الموت بين عائلتي، أريد رؤية صغاري قبل أن أرحل

- وأين يكون بيتك؟

رد الرجل: إنه قريب, أعني على النهوض وسوف أصفه لك

أعان فهر الرجل على النهوض بينما قالت ديالا:

أنسيت أمر رجال الامبراطور؟ ألن تلحق بهم؟

رد فهر: سأعيده لعائلته أولًا ثم نتابع طريقنا

رفعت ديالا كتفيها في لامبالاة وقالت: كما يحلو لك

ظل الرجل يوجه فهر فيدخله في شارع ويخرجه من آخر حتى ملت ديالا هذه التوجيهات وهذا الطريق الذي يبدو لانهاية له فقالت منزعجة: ألم نوشك على الوصول؟

فأشار الرجل فإذا بالبيت يقبع أمامهم صغيرًا لا يتكون

إلا من حجرة واحدة ينبعث منه ضوء خافت هو ضوء مصباح زيتي..

اقتربوا وطرقوا الباب سمعوا صوت امرأة تتحدث بينما تقترب من الباب وتفتحه، وقفت بالباب امرأة ممتلئة القوام، يلتمع وجهها وتبدو به بشاشة يرتاح لرؤيتها المرء حتى وإن لم يستحسن جمالها، ولها يدين نضرتين وكأنها لم تفقد يومًا من سنواتها

ما إن رأت زوجها حتى فزعت والتقطته من أيديهم

بينما تقول: ماذا دهاك؟ ألم تخرج سليمًا معافى! هل قامرت بسنواتك كعادتك؟ ألم أخبرك أنك ستلقي بنفسك إلى التهلكة؟

- أرجوكِ ..أريد بعض الراحة ضعيني بالسرير

قالها الرجل مستسمحًا امرأته كي تتوقف عن الحديث وضعته على السرير ودثرته بالأغطية بينما جسده يزداد ارتعاشًا وزرقة، بكت المرأة على حال زوجها بينما تقول: من فعل بك هذا يا عزيزي؟

"الحان" أجاب الرجل من بين أسنانه التي تصطك

- ألم أقل لك ألا تذهب لهناك؟ إنهم أناس أشرار يستنزفون سنواتك هباء، أخبرتك أن ما تقوم به خطأ وبأنه يجب عليك أن تتوب عن ذنبك، كنت تجيبني دائمًا بأنك ستتوب عن كل ذنوبك في الوقت المناسب وبأنك ستتوقف عن ارتياد الحان للأبد

زاد نواحها بينما تقول: ألم يحن الوقت لتفعل ذلك؟

هيا يا زوجي تبرأ من كل آثامك, أنقذ نفسك قبل فوات الأوان، أو افعل خيرًا لترتد إليك عافيتك كانت المرأة راكعة إلى جوار السرير تتوسل زوجها بأن يبرأ من آثامه, لكنه أجابها:

كل ما أحتاجه هو جرعة من السنوات, أتيني بها وأعدك أني لن أعود إلى ما كنت عليه، بل سأكون أتقى من على هذه الأرض

ناحت المرأة: إذًا فلقد هلكت يا زوجي فما لنا إليها سبيل

حينها استيقظ الصغار فلما رأتهم نادتهم: تعالوا لتودعوا أباكم

اقترب الصغار يبكون، كانوا ثلاثة أكبرهم لا يتجاوز عمره العشر سنوات, هو الذي احتضن أخويه المذعورين

بينما قال الصغير فيهما والذي كان يتهته بينما يتحدث باكيًا: إلى أين سيذهب والدي؟

أجاب الأوسط: إنه سيذهب للجحيم, تقول أمي دائمًا بأن نهاية والدنا لن تكون جيدة، إنه شخص غير صالح

نهرت المرأة صغيرها:

توقف عن هذا الحديث السيء، وتعالوا قبلوا والدكم
بدا الصغار غير راغبين في الاقتراب, فقد أرعبتهم صورة والدهم، جذبتهم الأم عنوة إليها ثم دفعت بهم لوالدهم، انتحبت العائلة بأسىً بالغ
شاهد فهر هذا بعينين دامعتين فأدخل يده في جيبه وأخرج قنينة السنوات التي تلألأت في الإضاءة الخافتة للغرفة فنهرته ديالا لما رأته وقالت: إياك أن تفكر حتى في ذلك لكن الأوان كان قد فات فقد رأت العائلة ما أخرجه فهر
فقال الرجل متوسلًا:
رشفة صغيرة ستعيد إليّ حياتي, لا تضنوا عليّ بها أرجوك بينما اقتربت المرأة من فهر وركعت تحت قدميه متوسلة:
ارأف بزوجي, أعطه فرصة ليكفر عن ذنوبه ليغدو شخصًا صالحًا ويربي أبناءه، ليس لي سواه على هذه الأرض وأنت أملنا الوحيد, كن أكثر صلاحًا منه وأنقذ حياته
حينها تطلعت الأنظار جميعها لفهر منتظرين قراره
فتحدثت ديالا منفعلة: إنه لا يستحق, لا تضيع سنواتك على هذا الرجل الفاسق إنني أعرفه جيدًا, لقد استنزف سنواته في المقامرة وعلى العاهرات، دعه ينال جزاءه
نطق الرجل:
إنه أنتِ يا ديالا, كيف لم أعرفك؟ لكنكِ تغيرتِ كثيرًا يا عزيزتي، ألم تكوني أجمل الجميلات وأكثرهن حسنًا؟! لكني ما زلت أحبكِ, أقسم أني لم أعشق امرأة سواكِ, وأني وأن كنت أضعت سنواتي من أجلكِ فأنا على استعداد بأن أضيع عمري مرة أخرى من أجل قبلة منكِ, تعالى يا ديالا وهبي لي قبلة تكون رفيقتي في أرض الموتى حينها قامت الزوجة عن الأرض وأمسكت بتلابيب ديالا

قائله: إذًا أنتِ تلك الماجنة التي خطفت مني زوجي وأودت به للهلاك! أنتِ التي استنزفت سنواته.. أقسم أني سأنتقم منكِ

أزاحت ديالا يدي المرأة وأجابتها بهدوء: لا تتعبي نفسك فقط انظري إلى ما حال إليه أمري وستعلمين أن لا انتقام أفظع مما حصلت عليه تفرست المرأة بوجه ديالا فوجدته دميمًا لا يطاق فأومأت برأسها قائلة: هذا ما تستحقه عاهرة مثلكِ لكن ،الرجل اضطرب جسده بشدة وبدأ فمه يخرج رغوة بيضاء, حينها صرخ الصغار وازداد نحيبهم بينما يتوسلون فهر بإنقاذ؛ والدهم فأسرع فهر نحو الرجل وأزاح يد ديالا بينما تحاول منعه ووصل إليه ثم رفع

رأس الرجل بين يديه وصب بفمه كامل ما تبقى من القنينة فهدأ اضطراب الرجل حينها سقط من السقف الفأر فصرخ الجميع مذعورين بينما قال فهر: لمَ عدت؟

أجاب الفأر: ما كنت لأتركك وحيدًا مع تلك المرأة المشؤومة عندما استدرجتك إلى هنا ظننتها ستستنزف باقي سنواتك, لكن ها أنت ذا تضيع جل ما تملك من أجل رجل غريب

صرخت المرأة: إنه يتحدث.....الفأر يتحدث!!

هدأتها ديالا قائلة: لا تخافي, إنه لا يشكل أي تهديد

لكن ظلت المرأة قلقة وتردد في هستيرية:

الفأر يتحدث..... الفأر يتحدث!

لكنها توقفت عندما لاحظت أن زوجها بدأت الدماء تجري في عروقه, وقلت زرقة جسده فغمرتها السعادة هي وأبنائها فقالت موجهة حديثها لفهر: شكرًا لك, لقد أنقذته لن أنسى لك هذا ما حييت اقتربت من زوجها مسرورة

نظر الفأر لفهر مذهولا فقد لاحظ اختفاء الشيب من رأسه لكنه لم يكن متيقن هل هذا حاله الأول أو أن الإضاءة السيئة تعجزه عن الرؤية وما كاد

فهر ومن معه يبرحون مكانهم حتى اسود وجه الرجل وتشنجت عضلاته وارتجف جسده بشدة ثم همد للأبد وقد فارقته الحياة!

صرخت المرأة: لقد مات.. مات زوجي!

ثم نظرت لفهر وديالا قائلة: ماذا فعلتما به؟

وأشارت لفهر قائلة: ماذا فعلت به أيها الساحر؟

لم أفعل شيء, حاولت إنقاذه.. ثم أني لست بساحرٍ!

رد فهر محاولًا الدفاع عن نفسه

لكن المرأة عادت تقول لأبنائها:

لقد قتل الساحر أباكم اخرجوا وقولوا للناس، لم يلبثوا برهة حتى تجمهر الناس حول البيت فأخذت المرأة تصرخ بأن "الساحر صديق العاهرة والذي معه فأر يتحدث قتل زوجي" حاول فهر الإفلات, لكن المرأة أحكمت قبضتها عليه وقد تجعد وجهها فجأة بينما تواصل الصراخ:

لقد قتل زوجي.. لقد قتل الساحر زوجي

لم يدرِ فهر أهذا التغير الذي طرأ عليها هو من وقع الحزن أم لأنها كاذبة؟

فصارحها قائلا: لمَ تلفقين لي تلك التهمة؟

أجابته: أنت قتلت زوجي وهذه هي الحقيقة التي سيعلمها الناس

- لكن الكذب يبدو ظاهرًا على وجهكِ, لا يمكنكِ إخفائه

ردت: الجميع يعلم أني لم أكذب في حياتي قط, فلمَ أكذب الآن؟

فقال فهر: صدقتِ طوال حياتكِ وتكذبين الآن؟ أنت متأكدة أني لم أقتل زوجك؟

- ليس لديك فرصة لإثبات ذلك لن يصدق أحد ساحر غريب، أما بالنسبة لتجاعيد وجهي فكل ما يتطلبه الأمر هو بضعة أعمال صالحة وسيتحسن الوضع كثيرًا, لا تقلق

- لكني لم أرد سوى مساعدتك ومساعدت زوجك،لما تفعلين هذا بي ؟
- ردت المرأة :

هذا لأجل أطفالي الصغار لا أريد أن يطولهم عار أبيهم أفضل أن يقولوا قتله الساحر على أن يقولوا مات بالحان

بدا واضحًا أن المرأة عزمت أمرها ولن تتوانى عن اتهام فهر حينها قال الفأر: علينا الهروب من هنا

فصرخ الناس مندهشين, لقد تحدث الفأر، الغريب الساحر جعل الفأر يتحدث!! ثم بدأوا يتهامسون: تلك العجوز القبيحة إنها ديالا ماذا حل بها؟ لمَ أصبحت بهذا القبح؟ لعلها أساءت للساحر فألقى عليها لعنة، أو استنزف سنواتها, اقتنع الجميع بأن فهر ساحر بل وأقسموا على ذلك وتأكد فهر أنه واقع في مأزق وأنه عاجز تمامًا عن تخليص نفسه, فتدخل الفأر وعض يد المرأة فصرخت مبتعدة, ارتجف الحشد وابتعدوا خائفين ظنًا منهم أن الساحر ألقى على المرأة تعويذة ما حينها لاذ فهر ومن معه بالفرار، في البداية لم يجرأ أحد على اتباعهم, لكنهم ما لبثوا أن تجمعوا من جديد؛ اتفقوا على طرد الساحر من أرضهم أو قتله وقتل الغانية والفأر المتحدث إن أمكنهم..

كانوا يركضون على الطريق بينما رأوا المشاعل تقطع ظلام الليل خلفهم وتتجه صوبهم، كاد قلب فهر يسقط أرضًا من الرعب وشعر بقدميه تخذلانه فقد ارتختا وبدا كأن روحه تنسحب من خلالهما صرخ به الفأر:

اركض إنهم سيلحقون بنا قريبًا

بكت ديالا: ولكن إلى أين نتجه؟ يبدو أن لا مفر

قال فهر بصوت متهدج: لمَ كل هذا؟ نحن لم نفعل شيء!

كانوا قد وصلوا لحافة المنحدر والنهر يجري أسفل منهم ويسمعون خرير الماء بينما يرون المشاعل تدنوا أكثر فأكثر, علموا أنهم مُدركون لا محالة

فقالت ديالا غاضبة:

لقد ارتكبت خطيئة كبرى, لقد قتلت ..أرضنا لا تسامح القتلة

- لم أرد إلا المساعدة, لقد تنازلت للرجل عن سنواتي فكيف أريد به شر ؟!
- _ لقد شرب من تلك القنينة وقضى نحبه, إذًا فأنت المتسبب في موته

وأنتِ شربتِ منها أيضًا ولم تصرعي! قالها الفأر

" نعم ....نعم, أنتِ شربتِ ولم تُصابي بأذى, إذًا ليس لي علاقة بالأمر" قال فهر محاولًا الدفاع عن نفسه

صرخ الفأر: لقد هلكنا, ها هم آتون

ارتعبوا بينما جمهرة غاضبة من الناس تهوي إليهم نظروا من أعلى الجرف كان الطريق طويلا للأسفل وصوت تكسر الماء على جدار الجرف يرهب القلوب، وجب عليهم الاختيار سريعًا, إما أن يغرقوا أو يُدركوا لذا ألقوا بأنفسهم في اليم ورأوا المشاعل تلقى حتفها على آثارهم، ولوهلة بدت المشاعل كشهابٍ ثاقب سرعان ما ينطفئ ضوؤه, شقوا الماء للأسفل فجذبتهم الدوامات لقاع النهر وتلاطمهم الموج وسحبهم التيار نحو الجنوب فاجتمعت عليهم ظلمات ثلاث، ظلمة الليل، وظلمة اليم، وظلمة القدر.. كان مخاض عسير لليم انتهى بأن لفظهم على أحد ضفتيه، خرجوا منهكي القوى، مبتلي الجسد كل جزء منهم ينز ماء، ويرتعش من الصقيع نفض الفأر بقوة فروه بينما ينظر بتعجب إلى الحشائش الهائلة المحيطة بهم وتساءل: ترى أين نحن؟اعتدل فهر جالسًا بينما يتساءل: هل أنتم بخير ؟قامت ديالا عن موضعها واعتصرت ثوبها قائلة: لقد نجونا بأعجوبة!

ولما نظرت حولها ورأت الحشائش الكثيفة تعلوهم

قالت متخوفة: هل يعلم أحدكما هذا المكان؟

وما كاد أحدهما أن يجيب حتى رأوا الحشائش تهتز بعنف وصوت زمجرة تأتي من خلفها, ارتعدت أوصالهم وكادوا يلقون بأنفسهم مرة أخرى باليم، لكنهم لم يستطيعوا فعل شيء, إذ حاصرهم ثلاث كائنات لا يدرون لهم وصف ولا اسم، لهم أجساد ضخمة وأسنان حادة ومخالب طويلة، وآذان مدببة ووجوه بشرية، يركضون على أربع بينما يقفون على رجلين, ظل الثلاث كائنات يلتفون حولهم بينما أعينهم تلتمع في الظلمة، ومن خلف الحشائش تقدم كائن آخر يختلف عنهم قليلا في تقاسيم الجسد وملامح الوجه توحي بأنها أنثى, اقتربت وتحسست بمخالبها وجه فهر الذي كادت روحه تُزهق من الخوف

ثم سمعها تقول:

قيدوهم وأحضروهم, إنهم عشاء لا بأس به لليلة, حينها قفزت ديالا عن موضعها وحاولت الركض هاربة بينما تقول: لن أكون عشاء لحفنة من المسوخ لكن وثبة واحدة من الأنثى المسيطرة كانت كفيلة بإسقاط ديالا أرضًا وجعلها تبتلع التراب الذي سقط وجهها عليه, ثم تحدثت الأنثى: إلى أين تظنين نفسك ذاهبة؟ لدينا ليلة حافلة لأجلكِ!

ولما رفعت مخالبها لتقطع رأس ديالا صرخ أحدهم:

رنوة! علينا أن ننتظر رأي القائد

نظرت إليه وقد اشتعلت عينيها غضبًا بينما تقول: إنها لا تستحق أن تبقى على قيد الحياة دقيقة واحدة

نعم أوافقكِ الرأي

نظرت رنوة حولها متسائلة: من قال هذا؟ أنت قلت هذا؟ قالتها مشيرة لفهر

هز فهر رأسه بمبالغة مقسمًا أنه لم يفعلها تقدم الفأر نحوها مجيبًا: أنا قلتها

أصيب الجميع بالهلع وبخاصة رنوة التي قفزت عن موضعها قائلة: أرأيتم الفأر؟! إنه يتحدث!!

قال أحدهم: كيف لفأرٍ أن يتحدث؟

بينما قال آخر: علينا أن نريه للقائد

بينما وثب الثالث وأمسك بالفأر بين مخالبه وقيد الاثنان الآخران فهر وديالا في جذع شجرة, وعلقوهم رأسًا على عقب ثم حمل الجذع رجلين منهما, لم يتوقف الأمر عند الوضعية السيئة التي كان فيها فهر, وديالا فقد كادت أدمغتهم تنفجر من الضغط بل ظلت الحشائش تصفعهم بينما رأسيهما يصطدما بمرتفعات الأرض، وأخيرًا سقط الجذع فارتطم جسديهما بقوة في الصخور، تأوها بشدة ثم نظرا حولهما فوجدا مكان يمتلئ بالخيام وجمع من الناس غريبي الشكل ينظرون إليهم بدهشة، فُك وثاقهما فاستطاعا الوقوف وسيق بهم إلى خيمة كبيرة بداخلها جلس كهلًا يتربع على عرش من الوسائد الحريرية ورنوة أمامه تركع على قدم واحدة وقد أحنت رأسها احترامًا وسمعاها تقول:

لقد جئت بهم إليك لتقرر مصيرهم

أشار الرجل بيده فدفع بفهر وديالا إليه، ثم أجبروا على اتخاذ نفس وضعية الركوع وخفض الرأس, سأل العجوز فهر: ما اسمك؟

رفع فهر عينيه ليجيب فتلقى صفعة على مؤخرة رأسه جعلته يهوى ببصره إلى سابع أرض لكنه كان مجبرًا على الاجابة بسرعة خشية أن يتلقى صفعة

أخرى فقال:

يدعوني بفهر.. أو فهر الغريب

ومن أي أرض أنت؟ عاد القائد يسأل

رد فهر: لا أعلم

كيف لا تعلم أتمازحني؟ قالها القائد غاضبًا فأوشك أحد رجاله على ضرب فهر فصرخ:

أقسم أني لا أعلم ..لا تجعلهم يضربوني أرجوك سأشرح لك كل شيء

رفع القائد يده قائلا: دعوه

ثم قال لفهر: هات ما عندك

اختلس فهر النظر إليه بينما يجيبه, فرأى رجلا ضخم الجثة يكاد يتساقط الثلج من بياض لحيته ورأسه, يرتدي عباءة رمادية وعينيه بحر من الخضرة اطمئن لها فاسترسل يقول:

لست أعلم إلى أي أرض أنتمي، أنا غريب فاقد ذاكرته يبحث عمن يكون، وكل ما أنا متأكد منه أني لا أنتمى لأرضك ولا لأرض النوايا

حينها شهق الحضور:

أرض النوايا! ... هل أنتم من أرض النوايا؟!

حاول فهر التملص من إجابته فقد أدرك من ردة الفعل أنه لابد قال شيء خاطئ، أو أن هؤلاء القوم يكرهون أهل أرض النوايا

فقال: لا.. لا ننتمي إلى هناك لقد لذنا بالفرار, لقد حاولوا قتلنا

"قتلكم! القتل خطيئة كبرى لديهم ما الذي اقترفتموه ليجرأوا الإقدام على قتلكم؟" سألت رنوة

قص فهر ما حدث لهم مع الرجل

فقال القائد:

لقد أعطيته سنواتك ومع هذا اتهموك بقتله!

- نعم هذا ما حدث وأقسم أني لست بكاذب

ولى القائد وجهه نحو ديالا قائلا:

إذًا فأنتِ الغانية التي أراد الرجل منها قبلة قبل موته

أومأت ديالا بزهو

فقال القائد: لكني لا أفهم لمَ يصر الرجل على هذا الطلب الغريب! فإنى لا أرى سوى مضغة ملفظة أمامي لا رائحة للجمال فيها!

ردت ديالا بغيظ: أيها العجوز لست سوى امرأة مستنزفة السنوات، وعندما أستعيد سنواتي ستكون أول الراكعين تحت قدمي متمنيًا تلك القبلة!

- إنكِ حقا تتحدثين بثقة غانية ..ولكني لست ممن يستهويهم جمال النساء

حينها دخل رجل ممسكًا بالفأر الذي كان يصرخ:

كيف تعاملوني هذه المعاملة؟ ألا تعلمون من أكون

تبسم القائد مجيبًا:

على رسلك أيها الفأر, إنني أعلم من تكون

نظر الفأر لمحدثه ثم قال مبتسمًا:

مضى زمن منذ آخر مرة تقابلنا، كيف حالك أيها العجوز؟

أجابه القائد: ما زلت على حالي, لكن أنت تغيرت كثيرًا

ثم طلب من الجميع الخروج وألا يبقى معه سوى الفأر وأن يتركوا لضيوفه الحرية بعد أن خرجوا من الخيمة اقتربت رنوة من فهر وبأحد مخالبها قطعت وثاق يدي فهر، كانت الحبال قد تركت علامات موجعه على جسده فراح يتأوه عند نزع الحبال، لكن زمجرة واحدة من رنوة كانت كفيلة بإخراسه، ابتعدوا

عن خيمة القائد وحول نار تحلقوا ثم قدمت لهم رنوة الطعام وجلست إلى جوار فهر قائلة:

ما قمت به يدعو للإعجاب, لا أحد كان سيفعل ما فعلت

- ظننتك ستقولين أني مغفل!

ردت: إنه وصف يلائمك, لكني ما كنت سأقول هذا بل كنت سأقول أن لك قلب طيب قل مالكيه

- شكرا لكِ, تلك هي المرة الأولى التي يمدحني فيها أحد قالها فهر فرحًا

وبدون إنذار تلقى ضربة من كف يدها على صدره كادت أن توقف قلبه وسمعها من غياهب ألمه تقول:

لا تعتد المدح وخاصة مني فأنا لا أطيقه ولا أطيق الراغبين فيه أومأ برأسه فهذا كل ما كان باستطاعته فعله رحلت رنوة مبتعدة بينما خرجت من الخيمة فتاة جميلة لها شعر أصهب بينما ترتدي ثوبًا صوفيًا أسود

جلست إلى جوار فهر سائلة:

أنتم الغرباء الذين عثرت عليهم رنوة؟

أومأ برأسه بينما قالت ديالا:

ومن تكونين أنتِ أيتها الصغيرة؟

أجابت: أنا ريحانة أخت رنوة

وبعد وقتٍ استعاد فيه فهر قواه على النطق سأل

هل لي بسؤال يا ريحانة؟

أجابته: اسأل ما شئت

- لمَ تكرهون أهل أرض النوايا؟

- ما الذي جعلك تقول هذا؟

رد فهر: ردة الفعل التي أبداها الجميع عند معرفتهم أننا من أرض النوايا

أمسكت ريحانة بعصا وبدأت ترسم خطوط على الأرض بينما تجيب:

- أنت لا تعلم قصة هؤلاء القوم يا فهر أليس كذلك؟
- قصة! أي قصة؟

هناك قصة قديمة لهم والجميع يعلمها

قالت ديالا: إنها مجرد أسطورة لا داعي لذكرها..

ربما تكون أسطورة ولكنها تحمل جزء من الحقيقة في طياتها

- إذًا ما الحكاية؟

بدأت ريحانة في السرد قائلة:

يقال أن أرض أعلى الجرف والتي تعرف الآن بأرض

النوايا، كانت أرض فسق وضلال سفك أهلها دماء بعضهم، كان الكذب لديهم عادة والسرقة نوعًا من العبادة أبرهم كان فاجرًا، وأكثرهم أمانة لصًا، وأتقاهم قاتلًا تسيل الدماء من يديه، نسائهم للجميع وأطفالهم بلا نسب

"هذا تلفيق وكلام فارغ" اعترضت ديالا

- لكن هذا ما تقوله الأسطورة!

قال فهر متلهفًا للمزيد: حسنا.. أكملي

عادت تقول: المار بأرضهم مفقود والناجي منهم يقسم

بالأيمان ألا يعود وإن فرشوا الأرض له ماس أو حملوه على أكتاف الناس, تلك الأرض، أرض شرور ظهر فسادهم برًا وبحرًا, كانوا يقطعون الطريق ويقتلون الغريب ويمنعون حتى الدابة من العبور.. وذات ليلة من ليالِ شتاء مشئوم مر بهذه الأرض شيخ كهل مسكين قرصه البرد وأعياه الطريق والجوع

فالتجأ إليهم يبتغي كسرة خبز وشربة ماء، لكنهم رفضوا أن يضايفوه، بل وأجمعوا أن يذبحوه, وعندما أوشكت الرأس أن تفارق الجسد، صرخ الرجل

أن انتظروا، فأبعدوا السيف ليسمعوا, فقال: تلك نبوءتي إليكم، إنكم أهل سوء وبذبحي تنزلون عليكم اللعنات, فسوف تبدل الأرض غير الأرض وتحاسبون على النيات قالوا مجنون وإنا نبوءتك لمنتظرون فإن شئت أطبق علينا السماوات ثم قطعوا رأس الرجل فتقاذفها الأولاد باللعب وبعد يوم وليلة تبدلت الأرض غير الأرض وأظلمت السماء وعلموا حينها أن نبوءة الرجل تتحقق وأنهم على ما اقترفوا سيحاسبون بل وسيحاسبون على الشرور التي يضمرون، وبأنه لا مزيد من الخداع فقد أضحى الوجه مرآة النفس ومنذ حينها حملت الأرض اسمها أرض النوايا، لكن أهل هذه الأرض الخبث فيهم أصيل وأقرب الأقربون لديهم دخيل

قالت ديالا هازئة:

لقد كانت قصة مقيتة لا قيمة لها أفسدها كثرة السجع, لكن الخيال فيها يدفعني للضحك

ردت ريحانة: أحيانًا الحقيقة تدفع للضحك أكثر من الخيال

فقال فهر: إن كانت هذه القصة حقيقية فهذا يفسر لي الكثير

تثاءبت ديالا: أريد النوم, ألا يوجد مكان تبيتون فيه؟

أشارت ريحانة إلى الخيمة فقالت ديالا: أهذا كل ما لديكم؟

ردت ريحانة: إننا نتنقل كثيرًا لا يمكننا أن نبني بيوتًا، لقد هجرنا بيوتنا وأرضنا منذ زمن

- لمَ فعلتم؟ سأل فهر

ردت: أرضنا أقفرت فقد جف ماؤها ومات الزرع فتركنا كل شيء ورحلنا فقد أوشكنا على الهلاك

ولمَ أقفرت أرضكم؟ سألت ديالا

أجابت ريحانة:

النهر انحسرت مياهه, ولا أحد يدري لهذا سبب، لكن
الامبراطور وعدنا ببناء سد وأخذ من رجالنا عدد كبير للمساهمة في بناء ذلك السد كان ذلك منذ سنوات، لكن إلى الآن لم نرَ شيء جديد ولا أحد يعلم لرجالنا طريق تنهدت ريحانة ثم عادت تقول محزونة:
لكما أن تتخيلا لم يبقَ من عائلتنا سوى أنا ورنوة! فلقد أخذ الامبراطور أبي وأقربائنا، أما أمي فقد أهلكها كثرة الترحال وماتت في أحد أسفارنا
قال فهر: لقد عانيتم الكثير من الألم
ردت ريحانة: لقد اعتدنا الألم ....لكننا لم نفقد الأمل قط فرنوة سوف تسافر غدًا لقصر الامبراطور لتبحث عن والدنا، ولتطلب من الامبراطور أن يعيد بناء السد لنعود لأرضنا
نظر ديالا وفهر لبعضهما البعض وكانا يفكران في نفس الشيء، فإن وجهتهما هي قصر الامبراطور وها هي فرصتهم جاءت إليهم
سأل فهر: كيف ستسافر رنوة لقصر الامبراطور؟
أجابته ريحانة: عبر النهر, ستركب السفينة وتبحر مع فرقة أعدها القائد بنفسه حينها قبضت رنوة على كتف أختها قائلة:
ما الذي تتحدثين عنه؟ ألم أخبرك ألا تطلعي أحد على هذا الأمر!
ردت ريحانة مرتجفة:
لم أقصد أن أفشي سرك.. أنا آسفة
أشارت رنوة للخيمة قائلة: اذهبي للداخل ولا تحدثي هؤلاء الغرباء مرة أخرى
ثم أشارت لفهر قائلة: أنت اتبعني فالقائد بانتظارك
تبعها فهر بينما قالت ديالا:
وإلى أين سأذهب أنا؟

لم تجبها رنوة لكن أطلت ريحانة برأسها من الخيمة قائلة: بإمكانك الانضمام إليّ

دخلت ديالا الخيمة قائلة:

أنتِ لا تشبهين أختكِ, هي قاسية وشرسة على عكسك

ردت ريحانة: لقد أجبرتها الحياة على ذلك فهي قائدة لفرقة عسكرية وعليها أن تبدي الشراسة لتنال الاحترام وإلا لن تكون جديرة بمنصبها

- لكنكِ لست أحد جنودها لتعاملك بهذه القسوة!

ردت ريحانة بينما تفرد الأغطية على الأرض: هذه القسوة تكون أمام الناس فحسب, أما فيما بيننا فهي الأخت الأكثر لطفًا على الإطلاق

وصلا رنوة وفهر لخيمة القائد فأشارت إليه بالدخول، كانت الخيمة فارغة إلا من القائد الذي حدثه:

- اقترب يا فهر

ففعل، وأجلسه القائد على مقربة منه ثم قال: ما غايتك يا فهر؟

- أن أستعيد سنواتي
- وذاكرتك؟
- ولكن هل لي باستعادتها؟
- بالسعي ستصل إلى كل ما تريد يا فهر
- دُلني ماذا أفعل؟

ما أنا بصدد قوله لا يجب عليه أن يخرج من بيننا فأنت لست أول الغرباء يا فهر ولا آخرهم, لذا إذا أردت أن تخرج من هنا سالمًا اتبع تعليماتي

ظلت رنوة منتظرة بالخارج، وكاد الفضول أن يقتلها تبتغى أن تصغي السمع لعل أذنها تلتقط كلمة مما يقال, لكنها خشيت أن تتهم بالتلصص على القائد

وقفت ساكنه ولم تتبع رغبتها الملحة في التلصص, لكن ما إن سمعت صوت القائد يناديها حتى اندفعت داخل الخيمة تلبي النداء، تفاجأ كلاهما من سرعتها فقالت مبررة:

لقد كنت أقف بالخارج في حال احتجت إليّ

أومأ القائد برأسه ثم قال: سوف تصطحبين فهر معكم وتذهبين معه حيث يشاء

"لكن.." قالت رنوة معترضة فقاطعها القائد:

هل تعارضين قولي يا رنوة؟

"لا" أجابته بخزي مطأطأة الرأس, ثم عادت تقول: هل سنصطحب المرأة والفأر أيضًا؟

نعم إذا أرادا.

قالت رنوة: هل لي بسؤال آخر؟

رد القائد: ماذا تريدين؟

ما الذي تعنيه بأن أذهب معه حيث يشاء؟! ألن يعطلنا هذا عن الوصول إلى قصر الإمبراطور في الوقت المحدد؟

أجابها القائد: لا تقلقي يا رنوة فحيث يشاء القدر ستذهبون، أما وصولكم للقصر فهو أمر محتوم

- ما الذي يعنيه هذا؟

لكن القائد أشار عليهما بالذهاب لحاجة به ماسة للنوم

خرجت رنوة تشتاط غضبًا لا تطيق فهر أو الأرض التي تحمله, حدثته بغيظ: إذا كنت سترافقنا فإنا راحلون غدًا باكرًا, لذا كن على الموعد لأننا لا ننتظر أحدًا تركته يقف وحيدًا ودخلت الخيمة، بينما جلس فهر يؤجج النيران

ليجلب الدفء وكل أحداث الليلة تمر سريعًا برأسه فلا يقوى على استيعابها، قفز الفأر على رأسه فقال فهر غاضبًا:

اهبط عني, لست في حال يسمح بالمزاح

- منذ أن قابلتك وأنت على هذه الحال, ما الجديد!

قالها الفأر بينما يجلس إلى جوار فهر ويقرض في قطعة خبز

قال فهر مغمومًا:

هل تظن أن بمقدوري استعادة سنواتي؟

- فقط إذا لحقنا برجال الإمبراطور

رد فهر: سنبحر غدًا, أتمنى ألا نكون قد أضعنا الكثير من الوقت

- ماذا أخبرك القائد ؟

- تحدث كثيرًا وعقلي لم يستوعب نصف ما قيل, لكن أخبرني لما استقبلك القائد استقبالًا حارًا؟

رد الفأر: إننا معارف قدامى

هل رأيت ديالا إنها متغيبة منذ وقت

- اخبرتنى أنها ستتجول قليلاً في الأرجاء ، أرجو لو تلقى حتفها ق اليم أو يأكلها وحش ما على هذه الأرض ونتخلص منها

- لا اعلم لما تكرهها إلى هذا الحد أيها الفأر

وبينما يتحدثان تقدم نحوهما رجل مهيب طويل له بشرة داكنة وشعر كثيف حدثهما:

لقد أمرني القائد بأن أصطحبكما إلى مكان المبيت قاما وتبعاه فأشار عليهما بخيمة فدخلا، كانت الأبسطة مفروشة ومعدة للنوم فاستلقيا عليها، وما أوشك فهر أن يغمض عينيه حتى اجتاحت رأسه الأصوات، إنه ذات الصوت النائح الذي يلاحقه كل ليلة، تقلب في فراشه، حاول أن يخرس الصوت, ود

لو يضرب رأسه بحجر ليقفد وعيه، لكن الصوت انقطع فجأة وعاد الهدوء يخيم على رأسه، حينها غرق في النوم

وما كاد النوم يكسبه عافية في بدنه حتى صُرع على صوت ديالا تصرخ بينما تهز جسده بقوة:

استيقظ إنهم يرحلون دوننا

هب فهر قائمًا مغمض العينين منكوش الشعر، ركض ولا يعلم له وجهة فأشارت عليه ديالا:

من هنا إنهم يركبون السفينة

ركض حيث أشارت وتبعهما الفأر فوجد أنهم قد رفعوا المرساة وأوشكوا على رفع سلم السفينة فصرخ:

انتظروا.. نحن هنا

نظرت رنوة إليه حانقة وكأنها تقول في ذاتها ما الذي جاء به, لكنها أشارت لأحد الرجال أن يترك السلم ليصعدوا، أسرع فهر ليرتقي السلم، صعد على ظهر السفينة، بينما وجد الفأر له طريق آخر فقد تسلق أحد الحبال، أما ديالا فقد صعدت السلم على مهل وتأني مما أثار الغيظ في نفس رنوة التي كانت متعجلة لدرجة جعلتها تفكر في إلقاء ديالا عن السلم، ولكن ديالا أخيرًا وصلت وأنقذت نفسها من خطر محدق أبحرت السفينة عكس مجرى النهر متوجهة نحو قصر الإمبراطور على السفينة تواجد سبعة أفراد من بينهم رنوة وديالا وفهر وأربع رجال انتقاهم القائد من أجل هذه المهمة كان أصغرهم شابًا نحيف الجسد هادئ لا يكاد يترك دفتره من يده، متعلق به وكأنه متعلق بحياته أما الثلاثة الآخرون فأحدهم وقف على دفة السفينة يقودها، بينما الآخر أنزل الشراع، أما الأخير فقد بدا له وجه غاضب لا يحدثه أحد إلا وصرخ بوجهه وقفت ديالا إلى جوار فهر وحدثته بينما تتأمل المياه:

لا أطيق صبرًا حتى أستعيد سنواتي, فهذا الجسد البالي يزعجني كثيرًا

رد فهر: قريبًا سنستعيد سنواتنا

حدجته ديالا بنظرة لم يفهمها، حينها كان الفأر يتمشى على سور السفينة فاقترب قائلا: حالك مزري يا فهر اذهب فاغسل وجهك وبدل ثيابك

- وأين سأفعل هذا؟

رد الفأر: اطلب المساعدة من أحد هؤلاء الرجال

نظر فهر حوله فلم يجد مقدرة على التحدث إلا مع ذلك الشاب النحيف الممسك بدفتره اقترب منه فوجده مستغرقًا في الرسم، وما إن رآه الفتى حتى ارتجف وأغلق الدفتر سريعًا

فحدثه فهر: أريد أن أغسل وجهى وأبدل ثيابي, هل هناك إمكانية لفعل ذلك؟

رد الفتى: لا أظن أن بمقدور أحد مساعدتك في مشكلة ثيابك

تلك فكل منا لا يحتكم إلا على ثوبين اثنين

حينها صرخت رنوة: تعال إلى هنا يا سديم

ترك الشاب فهر وركض يلبي النداء

فقالت: اترك هذا الدفتر لبعض الوقت, واذهب لتنظيف مقدمة السفينة

تحدث الرجل الذي يعتلي السارية قائلا:

رنوة, هناك سفينة تعترض طريقنا إنها تقف عند مدخل أرض النوايا

التقطت منظارها وتفحصت فتأكدت من صحة الأمر وانتابها قلق بالغ بينما تقول: إنها سفينة تفتيش يبدو أنهم يبحثون عن شيء ما, ثم نظرت لفهر قائلة: أو شخص ما

هبطت عن سلم السارية واقتربت من فهر قائلة:

سنمر بأرض النوايا عما قريب، وأظن أنه من الأفضل أن تختبئوا هذا لسلامتكم وسلامتنا نحن أيضًا فهؤلاء لابد أنهم يفتشون عنكم

"ولما يبحثون عنا؟" قالت ديالا مرتجفة

- لقد قتل صديقك رجلًا من أرض النوايا, أتظنين أن هذا سيمر مرور الكرام؟

رد فهر: أنا لم أقتل أحد

- هذا قولك أنت، وما يدرينا أنها الحقيقة؟

كاد أن يرد عليها فهر لولا أن قال الفأر:

لا داعي للحديث أكثر، الجدال لن يغير في الأمر شيء ورنوة محقة علينا الاختباء

اقتنعوا بالأمر فأشارت عليهم رنوة بمخبأ في باطن السفينة، هبطوا للأسفل واختبأوا وبعد عدة دقائق رأوا رجال من أرض النوايا يقفون فوق رؤوسهم ويسألون:

هل رأى أحدكم الساحر والغانية وفأرهما المتكلم؟

اعترض الفأر: أنا لست ملكًا لأحد

فأشار عليه فهر بالتزام الصمت كي لا ينكشف أمرهم, فسكت على مضض

أجاب الرجال على ظهر السفينة بأنهم لم يروا أحد, لكن الرجال من أرض النوايا أصروا على تفتيش المكان، دقت القلوب كطبول الحرب، يخشى أن ينظر أحد هؤلاء الرجال أسفل قدميه فيرى فهر ومن معه، صرخ

أحد المفتشين فتيقنوا أن أمرهم قد كشف لكنهم, سمعوه يقول: من صاحب هذا الدفتر؟

تقدم سديم مجيبًا: إنه لي

اقتربت رنوة بدورها تتبين الأمر فقال المفتش وهو يفتح الدفتر على وجه فهر المرسوم بداخله

هل رأيت صاحب هذا الوجه؟

نظر سديم إلى رنوة وقد بدأ يتصبب عرقًا

فتحدثت رنوة: نعم لاقانا هذا الرجل في سفرنا

متى كان هذا؟ سأل الرجل رنوة

تباطأت في الإجابة لتفكر ماذا عساها تقول فأجابته:

بالأمس

نظر سديم إليها مذهولًا لكنها تابعت قولها:

لقد كان يتجه جنوبًا وكان معه امرأة أرادا بشدة

مرافقتنا لكننا رفضنا، فلقد كانا مريبين

أومأ الرجل برأسه ثم قال: إنه رجل خطير للغاية

وما قصته أيها المفتش؟ استفسرته رنوة بفضول مصطنع

رد: إنه ساحر, لقد زهق روح في أرضنا ويسعى لزهق

المزيد من الأرواح، وكان يرافق غانية حقيرة لقد كانت أسوء امرأة بأرضنا لذا طردناها، لكنها عادت وجلبت معها الساحر ما إن سمعت ديالا هذا الكلام يقال في حقها حتى استشاطت غضبًا وحاولت الخروج لتصفع هذا المدعي على وجهه لكن فهر منعها عن فعل ذلك سمعوا ،رنوة تسأل: ماذا ستفعلون بهم أيها المفتش؟

رد الرجل: سنذبحهم لنمنع شرورهم عن الجميع

اومأت برأسها بينما قطع الرجل الورقة المرسوم بها وجه فهر وقال:

سنأخذ هذه ليعلم الجميع كيف يكون وجه الساحر

لقد سهلتم علينا البحث كثيرًا ، شكرًا لك

حينها ربت على كتف سديم، وعندما بدأ يهبط عن سلم السفينة سألته رنوة:
ما اسمك أيها المفتش؟
نظر إليها للأعلى مجيبًا: أًدعى نافع يا سيدتي
- يبدو أنك شخص صالح يا سيد نافع
رد نافع: شكرًا لكِ يا سيدتي، ما أنا إلا باحث عن العدالة
هبط باقي رجال التفتيش عن السفينة التي أكملت
إبحارها نحو الشمال مخلفة ورائها أرض النوايا
خرج فهر ومن معه من مخبأهم فقالت ديالا مغتاظة:
يقول عني حقيرة بعد كل ما فعلته من أجله كان حرى بك يا فهر أن تتركني أنتزع رأسه عن جسده
- كان سيقطع يديكِ قبل أن تقتربي منه
ردت رنوة بينما تغرس خنجرها بقوة في سور السفينة
قال الفأر محدثًا فهر:
إنهم لن يتوقفوا حتى يعثروا عليك، سوف يقطعون رأسك يا فهر
- إنهم يتهمونني بالباطل، أنا لم أقتل أحد
وهل لديك دليل على ذلك أو شهود؟ سألت رنوة
- ديالا والفأر يشهدان
- هما متهمان معك لذا شهادتهما ليست ذات نفع
زفر فهر بقوة بينما ينظر للسماء واستغرق برهة للتفكير قبل أن يعاود النظر لرنوة قائلا:
أذكر أن القائد حدثني بهذا الشأن لكني عجزت عن فهم ما يرمي إليه
ماذا قال لك؟ سألت رنوة باهتمام بالغ

- حدثني: "عندما يأتيك من تعرفه ليحاسبك على ما لم تقترفه ويجعل منك قاتل دون أن تقتل فاذهب إلى الأرض التي يتنفس أهلها التراب وانقطعوا عن الطعام والشراب فلديهم ستجد براءتك"

هل يعلم أحدكم ما يعنيه هذا؟

لكن بدت رنوة متحيرة ولا تجد إجابة لديها على سؤاله وكذلك ديالا والفأر حينها تحدث سديم الذي كان يقف على مقربة منهم فقال: لعله يقصد أرض الموتى!

نظروا إليه وعلامات التعجب ترتسم على ملامحهم فقالت رنوة: أظنك محق في التخمين، ولكن الأحياء لا يذهبون لأرض الموتى!

رد سديم: بلى.. لكن بطريقة واحدة

- ما هي؟ دلني عليها سأل فهر متلهفًا

قال سديم: قلادة بنت القمر

قالت رنوة: إنها مجرد أسطورة

أومأ فهر برأسه كمن تذكر شيء بينما رد سديم:

لقد قرأت في كتاب ما بأنها حقيقية بل وأعلم كيف بإمكانكم أن تحصلوا عليها

قال فهر: كيف؟ أخبرني أرجوك

رد سديم: إنني لا أحمل الكتاب معي, ولكني أتذكر كل كلمة قرأتها، ففيه ذكر: "فوق السحاب على جبل يطل القمر أعلاه هناك تسكن بنت القمر وبجيدها قلادة هي مطمع الرجال والنساء على حد سواء فمالكها يكلم الموتى ويتبع القمر في دورته إعتامًا وسطوعًا"

وأين هذا الجبل؟ سأل فهر

- إنه في وادي العظام

- قالت رنوة: إنه يبعد مسيرة يومين وليلة ومضيقه يصعب على سفينتنا السير فيه
- لا يمكننا إضاعة كل هذا الوقت, يجب علينا أن نلحق برجال الإمبراطور قالت ديالا

تحدث فهر: لكني أريد أن أثبت براءتي

ردت ديالا حانقة: ما دخلنا ببراءتك السخيفة إننا نسعى خلف السنوات

ردت رنوة: ما نفع السنوات إذا قطعت رأسكِ؟ إنك الآن رفيقة الساحر وما يصيبه سوف يصيبك لذا من الأفضل أن يثبت هو براءته لتنجوا كلاكما

نظرت إليها ديالا بغيظ لكن سرعان ما ولت وجهها بعيدًا

فقال الفأر: لكن كيف سيحصل على القلادة إن كانت على جيد بنت القمر؟

رد سديم: ذكر أنه عندما يكون القمر بدرًا تكون بنت القمر في أوج جمالها وتضيء القلادة، حينها فقط يمكن انتزاعها

وإذا تم انتزاعها في غير هذا ؟ سأل فهر

- لا يكون للقلادة نفع

نظر الفأر للقمر وقال مازال أمامنا وقت، الليلة إذا أبحرنا على طريق الوادي سنلحق بالقمر عند تمام اكتماله أو ربما قبل هذا

قال فهر بتلهف: ماذا ننتظر؟ فلنبحر إذًا

نظرت رنوة لفهر بغيظ قائلة:

لولا أن القائد أمرني بأن آخذك حيث شئت ما كنت أمرت رجالي بالحيد قيد أنملة عن مسارهم

ثم أشارت لرجالها قائلة: أديروا الدفة نحو وادي العظام

نظر الرجال بتعجب لبعضهم البعض ثم أداروا دفة

السفينة، عندها توجه أحد الرجال إلى رنوة، كان ضخم الجثة غاضب الملامح جذبها من يدها وابتعدا، بدا على ملامحه الانزعاج, لكن رنوة وقفت أمامه متحدية حدثها: تعلمين بمدى المخاطر التي سنواجهها باصطحابنا لهذا الغريب

ردت: هذه أوامر القائد

- لكنه ليس معنا!

ردت غاضبة: حتى وإن لم يكن معنا، كلام القائد ينفذ في غيابه قبل وجوده

- حسنًا سنضطر لتنفيذ كلام القائد إذا وجد الغريب ولكن إن لم يوجد..؟

ضيقت رنوة ما بين حاجبيها مستفسرة:

ما الذي تعنيه؟

رد: لنتخلص من الغريب في وادي العظام حينها لن نضطر لتحمل مشاكله

نظرت رنوة بحدة إليه بينما تقول:

لو لم أعرفك جيدًا يا أيهم لقلت أنك تغار من هذا الغريب لذا تود التخلص منه

أجابها: تعلمين أني ما زلت أحبك رغم صدك لي, لكن أن أغار من هذا المسخ! إنه أمر مستبعد، كل ما في الأمر أن هذا الساحر الغريب شخص لا يمكن الوثوق فيه ناهيك عن مساعدته

ردت: القائد له وجهة نظر أخرى.. يرى أنه شخص جيد

- القائد لا يرى بُعد أنفه، إنه يخدعنا بكلامه المبهم
- توقف عن كلامك السخيف، أنت عار على قبيلتنا

قالتها رنوة غاضبة ثم رحلت عنه مبتعدة

بعد يومين وليلة من الإبحار وصلوا إلى وجهتهم، ولكي يصلوا لوادي العظام تعين عليهم عبور المضيق اصطفوا جميعهم على حافة السفينة ينظرون للطريق الذي عليهم عبوره فحائط المضيق صخوره مسننه وبالكاد يتسع الممر للسفينة ناهيك عن الموج المتلاطم الذي يجبر السفينة على التخبط بالجدار قال أيهم: لن أخاطر بعبور هذا المضيق مهما قلت أو فعلت، فمن المستحيل أن يعبر أحد هذا المضيق وينجو!

نظرت إليه رنوة ثم أمرت رجالها قائلة:

أنزلوا القارب

فأنزلوه ثم خاطبت فهر: هل أنت مستعد؟

أومأ برأسه إيجابًا بينما ازدرد ريقه في صعوبة بالغة وبدا على ملامحه الخوف، ثم هبط للقارب واستقر فيه وعندما أقبلت رنوة على النزول أمسك بها أيهم قائلا:

إلى أين أنت ذاهبة؟

ردت رنوة: سأرافقه

- قائد السفينة لا يتركها، ابعثي بأحد الرجال معه

فكرت رنوة بأنه محق فقائد السفينة لا يتركها وإن هي تنازلت لأيهم عن القيادة فليس من المستبعد أن يتركها هي وفهر في وادي العظام ويرحل

فنظرت حولها لترى من يصلح لمرافقة فهر فأشارت قائلة: اذهب معه يا سديم فأنت أفضل من يدله على الطريق

قال سديم: لكني لا أعرف الطريق!

ردت رنوة: لكنك قرأت الكتاب لابد أنه ذكر كيفية الوصول

أومأ سديم برأسه وأطاع أمرها

انتظر فهر الفأر أن يأتي ولما وجد منه الإحجام سأله:

أيها الفأر ألن ترافقني؟

أجابه الفأر: عذرًا يا فهر إنها أرض حُرم علي دخولها

ازداد فهر خيفة من قول الفأر لكنه كتم خوفه داخله ومضى في سبيله هو وسديم حتى اختفيا داخل المضيق المظلم

تلاطم الموج قاربهما وارتجف قلبهما رعبًا فصدى أصوات غريبة تتردد من حولهما وبعد عناء عبرا المضيق ليرسو قاربهما بعد ذلك على شاطئ أرض صخرية سوداء يرتفع جبلين عظيمين بها ويصلان حد السماء، وما بينهما وادي لا شعاع ضوء يصل لأرضه

أشار فهر قائلا: إذًا هذا هو وادي العظام!

- نعم إنه هو
- والآن ماذا سنفعل؟
- منزل بنت القمر فوق جبل بنهاية هذا الوادي، والوادي لا يمكن عبوره لذا عليك أن تتسلق سلسلة الجبال هذه
- أتسلق وماذا ستفعل أنت؟
- سأنتظرك هنا، فأنا أخاف المرتفعات

أومأ فهر برأسه وأوشك على المضي لولا أن أوقفه سديم قائلا: الليل سيحل قريبًا ولن تتمكن من التسلق في الظلام، خيم هنا الليلة وفي الصباح الباكر يمكنك المضي في سبيلك أيد فهر رأي سديم خاصة أنه يشعر بالإرهاق الشديد من رحلتهم عبر المضيق، ناما في القارب بعد أن عجزا عن افتراش أرض الشاطئ الصخرية

قال سديم معتذرًا:

لم أقصد أن أسبب لك المتاعب عبر تلك الرسمة التي رسمتها لك، أنا آسف حقًا

رد فهر: لا عليك, إنهم كانوا يسعون خلفي على أية حال ما كانت رسمتك لتشكل فارقًا كبيرًا

- ما حكايتك يا فهر؟ لمَ ورطت نفسك في كل هذا؟

تنهد فهر بعمق ثم زفر ببطء بينما يجيبه: حكايتي أشك في أني أعلمها، فقد استيقظت ذات يوم جاهلًا من أكون وعندما اقتنعت أنه لا سبيل للتذكر فقدت سنواتي وها أنا ذا متهم بالقتل ويسعى القوم خلفي بينما أسعى لإثبات براءتي

- إني لأشفق عليك، لكني أعدك أن أساندك وأساعدك قدر استطاعتي لتستعيد ما هو لك، ولا تقلق فأنت لست أول الغرباء

نظر إليه فهر قائلا: لقد قال القائد نفس قولك, ما الذي تعنيه بأني لست أول الغرباء؟

رد سديم: ليس لدي علم القائد ولكني قرأت عن الأمر، فعبر العصور ظهر بأرض الإمبراطورية أناس لا يشبهوننا وكانوا فاقدين لذاكرتهم تمامًا مثلك

سأل فهر: وماذا حدث لهم؟

أجاب سديم باستياء: لقد قُتلوا، لكن البعض استطاع الهروب

شعر فهر بالضيق وبأن الظلمة حوله تتسلل داخله فتزيد من كآبته

عندما حل الصباح كان فهر قد حمل على ظهره حبلا وأمسك بيده قماشة بها زاده القليل، وعندما أوشك على المضي في سبيله صرخ سديم مناديًا عليه فالتفت فهر, فقال سديم: لقد نسيت أن أخبرك أمر هام ..إنه تحذير

- هات ما عندك

عندما تنير القلادة لا تنظر في عيني بنت القمر, إياك أن تفعل

- حسنًا سأضع ذلك في الحسبان

ثم بدأ يتسلق الجبل ونصب عينيه رغبة جارفة في إثبات براءته وقلق بالغ أنه قد يضيع سنواته كما أضاع ذاكرته بعد وقت من التسلق وصل للقمة وجر قدمية بينما يسير منهكًا متبعًا الدرب الذي وُصف له فها هو يقف على قمة جبل يطل القمر أعلاه وعلى حافته يرى منزل خشبي صغير معلق بالهواء ولا وجود لدعامات تربطه بالجبل سوى طريق خشبي ضيق يؤدي لباب المنزل

ظل طويلا يفكر أيعود أدراجه أم يتقدم فهو كلما تقدم خطوة في أي شيء تعقدت أموره أكثر خطى خطواته الأولى للأمام وما إن لامست قدمه حافة الطريق الخشبي المفضي للبيت حتى انبعث ضوء خافت من البيت، ارتجف فهر وتقهقر للخلف لكن لا شيء حدث أكثر من هذا، أكمل خطواته وقلبه المرتعب فر هاربًا إلى قدميه، عندما وصل للباب كان الفراغ يحيط به بشكل كامل فأسفل قدميه لم يكن هناك سوى وادي سحيق مظلم لا يسمع منه إلا صوت الذئاب وهى تعوي, أوشك أن يطرق الباب، لكنه أمسك بالمقبض وأداره ففتحه، ومن انفراجة الباب نظر فرأى من بعيد خيال امرأة تسير، تراجع لكنه عاد النظر، لكنها لم تكن هناك فتح الباب قليلا وأقحم رأسه ليرى جيدًا، لكن الإضاءة كانت خافتة على نحو شديد، ولم يكن بمقدوره إلا أن يرى بضع خيالات ويحدد فقط ماهية الأشياء وأماكنها، في المدخل استقرت طاولة صغيرة عليها مزهرية بها زهور سوداء فاحمة تتدلى ذابلة، وعلى امتداد البصر غرفة حالكة الظلمة وناحية اليمين غرفة أخرى يصدر منها ضوء خافت وسمع لتوه صوت طقطقة تنبعث من هناك، مازال قلبه يأبى الصعود إلى صدره الفارغ وها هو يتشبث بقدميه فيعجزه عن الحراك وأخيرًا وبعد تردد دام طويلا دخل المنزل وتقدم نحو الطاولة التي تحمل المزهرية كان على

مقربة من الأزهار التي ما إن شعرت به حتى اعتدلت من ذبولها وفاقت كما يفوق النائم وتوجهت كل الأزهار نحوه وكأنها تنظر إليه

قفز مبتعدًا فارتطم جسده بلوح زجاجي، أدرك بعد برهة من التفحص أنه اصطدم بنافذة زجاجية وللظلام الدامس بالخارج والداخل عجز عن رؤيتها وها هو الآن يرى عبرها نجوم باهتة تلوح في الأفق سرعان ما تختبئ خلف الغيوم استفاق من شروده على صوت واهن يحدثه:

جئت في الوقت المناسب، لقد جهزت الطعام تعال وكل قبل أن يبرد

بدت العجوز ذات الشعر الأبيض الناصع وكأنها تكلم أحد غيره ولكنها عادت تقول:

هل ستظل واقفًا لدى النافذة طوال اليوم؟ هيا تعال اجلس هنا

تيقن أنها تحدثه فقد ولت وجهها ناحيته لكنه عجز عن رؤية ملامحها فقد طمسها الظلام، عدا شعرها الذي بدا واضحا له في العتمة وكأنه منارة ترشد بموضعها تقدم نحوها متحسسًا موضعه فأشارت بيدها لكرسي أمامها، جلس على الكرسي وفوق الطاولة رصت أطباق لم يتبين ما تحويه؛ لذا خشي أن يمد يده فقالت المرأة:

لقد أعددت لك حساء الخرشوف إنه المفضل لديك

بدت عليه الريبة فهو يشك في كون المرأة تدرك حقًا مع من تتحدث

قال بينما يحاول التوضيح: لكني لست...

قاطعته: لا وجود للأعذار لقد أعددته كما طلبت مني

- لكني لست من تظنين!

أكملت كأنها لم تسمعه:

لقد أرهقت نفسي بإعداد الحساء وأنت ترفض حتى تذوقه!

حالت نبرة صوتها للغضب والتمع بعينيها بريق أفزعه فتناول من يدها الطبق وبدأ في ارتشافه شعر كأنه يبتلع حفنة من التراب الممتزج بالبصاق

نظرت المرأة إليه بترقب وما زالت عينيها تبرقان فأجابها: إنه جيد

ردت فرحة: كنت واثقة أنه سينال إعجابك

استمر في تناول الطعام على مضض وأحس بأنه يتناول القيء وربما القيء سيكون له طعم أفضل من هذا الحساء الذي يبتلعه رغمًا عنه، ظلت تراقبه حتى أنهى طبقه قامت من موضعها واتجهت نحو الغرفة المضيئة قائلة:

لقد جاء وقت التحلية

فصرخ: لا....لا أريد التحلية

فالتفتت إليه وفي الضوء الخافت رأى وجهها مسودًا كفحمة، ومشقق كأرض عطشى، حدثته مزمجرة:

هل تقول شيء يا عزيزي؟

هز رأسه نفيًا بينما شحب وجهه وكاد أن يتبول في سرواله من الرعب

بعد لحظة عادت إليه وهي تحمل طبق كبير من الهلام الأبيض الذي يرتج بقوة كلما تحركت، وضعته على الطاولة وراقبت عين فهر الهلام بينما يهتز ذهابًا وإيابًا

وسمعها تقول: إنها حلوي اليرقات لقد جمعتها من جذع شجرة متعفنة أمام البيت, ثم طهوتها وأعددت منها هذه الحلوى, متأكدة أنها ستروق لك

شعر فهر برغبة عارمة في البكاء وفكر أنها ستغضب إن رفض تناول الحلوى لذا عليه أن يتحايل أو يتحجج بأمر ما فقال:

بالطبع إنها تبدو رائعة، لكني متعب للغاية وأود النوم ..ربما في وقت لاحق سأتذوقها

رأى ابتسامة ترتسم على ثغرها الخرب بينما تقول:

حسنًا يا عزيزي, ولكن تناول تلك القطعة الصغيرة لتخبرني برأيك

ثم رآها تمسك بملعقة وتغرسها في الهلام لتخرج قطعة يعجز فمه عن احتوائها وتقدمها إليه ظل لحظات ينظر إليها وإلى الملعقة الممتلئة بالهلام في يدها ولم يقوَ على مد يده ليأخذ الملعقة، أثناء ذلك لامس وجهها شعاع من ضوء اخترق النافذة فالتمع وجهها واختفت تشققاته وبدا كسراج منير

نظر للنافذة ليعلم مصدر الضوء فاكتشف أنه شعاع من ضوء القمر الذي انقشعت عنه الغيوم، ونظر إلى المزهرية التي لم يصل الضوء إلا لنصفها فوجد أن نصف أزهارها استحالت لبيضاء لامعة وكأنها قُطفت حديثًا، والأخرى التي تقبع في الظلام مازالت سوداء ذابلة

عاد النظر إلى المرأة فوجدها تبدلت فقد استحال شعرها لأسود فاحم، ووجهها انقشعت ظلمته واحمرت وجنتاها وتدلى من جيدها الطويل قلادة بيضاء مضيئة استقرت بين نهديها، بينما ثوبها السماوي يكشف عن جسدها الغض، نظر لعينيها الزرقاوتين وشعر كأنه يسقط في محيط لا قاع له، بل ويرغب بشدة في أن يواصل السقوط فبحر عينيها الآسر يجذبه نحو الأعماق وسمعها تحدثه: هيا تناولها يا عزيزي

أطاعها وفتح فمه عن آخره فحشرت هي قطعة الهلام بجوفه، فمضغها متلذذًا، لكن سرعان ما اختفى ضوء القمر مختبئًا خلف الغيوم لتعود المرأة لحالها الأول حينها كان الهلام قد استقر بين فمه وبلعومه ولا سبيل للتخلص منه فبلع الجزء المستقر في بلعومه وبصق

الآخر من فمه إلى يده وحدثها:

مروع ... أقصد رائع

قالت متهللة: سأحتفظ به كله لأجلك

ثم قامت وأشارت للغرفة المظلمة قائلة:

بإمكانك أن تستريح لبعض الوقت في هذه الغرفة

جر قدميه للغرفة المظلمة وعلى سرير بداخلها استقر جالسًا بينما يفكر:

الآن علمت لمَ حذرني سديم ألا أنظر لعيني بنت القمر عندما تضيء القلادة، لقد كنت أطيعها كالمغيب!

ولكن ما العمل؟ القمر الليلة ضوئه مختفي خلف الغيوم ولياليي اكتمال القمر أوشكت على الانتهاء، أرجو أن يكون لي فرصة في انتزاع تلك القلادة والرحيل عن هنا سالمًا أضجع على الفراش وأغمض عينيه، كان في حاجة ماسة للراحة لكن الصوت عاد ينتحب برأسه ويقض مضجعه، اقتربت المرأة منه وبيدها كوب ثم قالت:

اشرب هذا وسوف تتوقف كل الأصوات عن إزعاجك

نظر مدهوشًا وحدثها: كيف عرفتِ؟

ردت: لقد سمعتهم، إنهم لم يكفوا عن النحيب منذ أن دخلت المنزل

- وما تلك الأصوات؟
- إنهم أشخاص تعرفهم ويعرفونك لكن حاجز منيع يحول دون تواصلكم
- لكنى لا أفهم شيء مما يقال إنه نحيب متواصل

يكاد يقتلني

- دعني أخلصك منه يا عزيزي ..ارتشف بعض من هذا المشروب وسوف تكف الأصوات عن إزعاجك للأبد
- أمسك بالكوب وقربه من شفتيه

خرجت المرأة من الغرفة بينما تقول:

نومًا هنيئا يا عزيزي عندما تستيقظ سوف تنتهي كل آلامك ومتاعبك

وضع الكوب إلى جواره وغط في نوم هادئ عندما فتح عينيه مرة أخرى وجد البيت مضاء بالكامل ظن أن الصباح قد حل لكن نظرة واحدة للجدران الزجاجية للغرفة جعلته يدرك أن الإنارة الساطعة تأتي من القمر العملاق الذي يملأ السماء أمامه أدرك حينها أنه نام ليوم كامل نظر إلى المرآة فتفاجأ بأن ثيابه تبدلت وأنه يرتدي بذلة حمراء لجنرال عسكري، والنجوم الذهبية اللامعة تعلو كتفه, حتى شعره مُشط واستقر على جانب، وضع يده على النجوم البارزة على كتفه يتحسسها فجاءه صوتها:

هيا يا عزيزي, لمَ تأخرت لكل هذا الوقت فأنا بانتظارك ارتجف فاهتزت يده وسقطت أحد النجوم عن كتفه لتستقر أسفل السرير، نزل على قدميه يبحث عنها وأدخل يده تحت السرير فاصطدمت بصندوق أوشك أن يتخطاه ليواصل البحث عن ضالته لكنه شعر بالفضول فجذب الصندوق وأخرجه من تحت السرير،حينها صعق وظلت أنفاسه تضطرب في صدره لبعض الوقت، بعد أن هدأ اقترب من الصندوق وتفحص ذلك الجسد المتكور كجنين والمحنط بداخله والذي يرتدي ثيابه هو، فظن أنها لابد بدلت ثيابه بثياب تلك الجثة المحنطة، زاد قلقه، وماذا ستفعل به بعد ذلك؟ حاول أن يجد مخرجًا لكنه لم يجد سوى نافذة صغيرة تطل على الوادي السحيق بالأسفل والذي تعوي الذئاب فيه منتظرة وليمة الليلة سمعها تناديه مرة أخرى فأسرع بإعادة الصندوق لموضعه وخرج من فوره دون أن يهتم بإعادة النجمة لمكانها، وجدها تجلس على المائدة وأمامها المزهرية يفوح من زهورها البيضاء عطرًا زكيًا، بينما هي ترتدي ثوبًا مخمليًا أسود وقلادة القمر تضيء أعلى صدرها

جلس أمامها بينما يتصبب عرقًا باردًا ينزلق ككرات ثلج على ظهره

سألته: هل أعجبتك ثيابك الجديدة؟

أومأ برأسه إيجابًا دون أن ينبس بكلمة قامت من موضعها واقتربت منه وسألته بينما تضع وجهه برفق بين كفيها: أتحبني؟

أومأ برأسه مرة أخرى

فقالت بلهجة آمره: أريد أن أسمعها

- نعم أحبك قالها بينما يبعد ناظره عنها

قالت: لمَ لا تنظر إليّ إذًا؟

حاول التملص قائلا: هل لي بسؤال؟

- اسأل ما شئت
- هل تخافين الموت؟

نظرت إليه مستغربة لكنها أجابته:

من يعاشر الموت لا يخافه

سألها متعجبًا: كيف؟

ردت: الموت لعنتي الخالدة أذوقه مع كل إشراقة شمس ومع كل أفول قمر

- وهل للأمر من نهاية؟
- ربما عند أفول السماء

قال: وإذا ما أفلت السماء على ما فيها ألن تفنى بنت القمر؟

أجابته بهدوء: ألن تفنى العوالم وما فيها؟ لا بأس بفنائي إذًا

حدثها متلجلجًا: ما الذي تريدينه مني؟

- قلبك
- وما حاجتكِ بقلبي! إنه خرب تمامًا كعقلي
- ردت بحنو: لا يا عزيزي, إن لك قلب لا يمكن إغفال طيبته، إنه نقي كقطعة ماس وكل ما أريده أن يحبني كي تزول لعنتي

سألها: أنتِ تبحثين عن زوال لعنتك؟

أجابته: نعم

- شعر بالإشفاق عليها لكن نفسه حدثته بوجوب الرحيل فتحدث دون وعي: عليّ الذهاب

قالت: لمَ تريد الرحيل باكرًا؟ الليلة ما زالت أمامنا طويلة

رد: لكني لا أمتلك الوقت

- أنت تضيع فرصتك, ليلة معي بألف ليلة وليلة

أجابته بينما تنحني لتلثمه

حينها رأى القلادة بينما تتدلى من جيدها، وكادت عينيه أن تلتقي عينيها فأغلق عينيه بقوة متذكرًا قول القائد له محذرًا: أغلق أذنيك إذا تحدثت بنت القمر وأغلق عينيك إذا تعرت

فقال: إذا ما قبلتني؟

- لذ بالفرار إذًا فهالك من لامس جسدها أو استسلم لحلو كلامها

هكذا أجابه القائد لذا قبل أن تلامسه شفتيها جذب

القلادة عن جيدها فانتزعها ثم دفعها عنه لتسقط أرضًاويلوذ هو بالفرار كان في نهاية الممر الخشبي عندما وقفت هي بمدخل البيت الذي كان يتصدع ويتهاوى نزولًا للأسفل وقف على الحافة ورآها بينما تنظر إليه وتصرخ متوعدة:

سأنتقم منك ..سألاحقك لنهاية العالم, ستراني حتى بأحلامك يا فهر

جفت الدماء في عروقه من قولها، لكن الأوان كان قد فات على فعل شيء فركض عائدًا بينما يقبض بقوة على القلادة في يده

عندما وصل إلى الشاطئ لم يجد سديم بل تفاجأ برنوة في انتظاره فسألها: أين سديم؟ وما الذي جاء بك؟

- لا نملك وقت لهذه الأسئلة، هيا اصعد علينا الرحيل من هنا، صمتت برهة ثم عادت تسأل مستغربة: ما الذي ترتديه؟!

أجابها: إنها قصة يطول شرحها هيا لنذهب من هنا سريعًا

صعدا على القارب وفى أثره كانت الذئاب تتدفق خارجة من وادي العظام ومتوجهة نحو الشاطئ، أبحر قاربهما مبتعدًا وتخطى المضيق فصرخ فهر: المضيق.... إننا نبتعد عنه

أجابته: لسنا بحاجة لعبور المضيق، إننا متجهون لأرض الموتى

نظر إلى القلادة المضيئة بيده وسألها:

هل تظنين أن من الصواب القيام بهذا؟

أجابت: لا أعلم, أنا أتبع التعليمات، أما القرار فهو لك

أومأ برأسه متفهمًا بينما صدى قول بنت القمر يتردد في رأسه ولا ينفك يفكر في عاقبة ما فعل

التجأ إلى النوم هروبًا من أفكاره فأغمض عينيه فوجد بنت القمر تقف فوق رأسه بينما هو متكور داخل الصندوق قربت وجهها منه وكانت عينيها تلتمعان وحدثته قائلة:

لن تستطيع الفرار, لا مكان لتختبئ فيه مني،ارتجف جسده بقوة وصرخ مفزوعًا في وجه رنوة التي أيقظته قائلة: لقد وصلنا أخذ لحظة ليستوعب الأمر، هبطا عن القارب ونظر حوله ليجد غابة كثيفة الأشجار وافرة الظلال متشابكة الأغصان

سأل فهر: هل هذه أرض الموتى؟

أجابته: أرض الموتى تقبع خلف هذه الغابة

توغلا داخل الغابة وكانا كلما توغلا ازدادت الظلمة وأضحى السكون مخيم إلى حد مقلق فحتى وقع أقدامهما تلاشى، فقط أنفاسهما المضطربة ودقات قلبيهما المتسارع تتردد لتنبئهما بخوفهما الذي يتفاقم بين لحظة وأخرى

أراد أن يستأنس بالحديث فسألها:

ألن تخبريني لمَ جئتِ؟

نظرت إليه مجيبة:

لقد كُشف أمرنا، فسفينة التفتيش جاءت على أثرنا لتقبض على المضللين، لذا حملت ديالا والفأر على قارب وتبعناكم إلى وادي العظام، وهناك وجدت سديم بانتظارك فأمرته أن يذهب مع ديالا والفأر إلى أرض الخسة

- ولمَ سيذهبون إلى هناك؟

أجابته بينما تتلفت حولها وكأن أذنيها ترصد صوتًا:

ليقابلوا رجلًا سيساعدهم على دخول قصر الإمبراطور

- لكن الرجال على السفينة ماذا سيفعلون؟
- لقد أبحر بهم أيهم مبتعدًا، ليكون لدينا فرصة للفرار

كاد أن يتحدث ثانية لكنها أوقفته قائلة: أتسمع ذلك الصوت؟

نظر حوله وأجابها: لا... لا أسمع شيء

ظلت تتلفت حولها قائلة: واثقة من أن هذا الصوت يأتي من مكان قريب ولكني أجهل من أي اتجاه يأتي

نظر إليها متفحصًا أذنيها المدببة التي تتحرك تلقائيًا وكأنها تتحسس مصدر الصوت ثم فجأة توقفت أذنيها عن الحراك وقالت: نعم, إنه في هذا الاتجاه أشارت إلى طريق مهجور بين الأشجار متشابكة الأغصان

فسأل فهر متعجبًا: هل أنتِ متأكدة؟

اومأت برأسها بينما تخرج سيفها من غمده وتقطع الأغصان لتمهد الطريق، تبعها غير مدرك لما يجري، ظلا ساعة من الزمن يسيران في هذا الممر، شك في صحة الأصوات التي تتحدث عنها رنوة، لكنه فجأة بدأ يسمع هو الآخر أصوات تأتي من خلف الأشجار، أصغى السمع جيدًا ليعرف ماهية تلك الأصوات فأدرك أنها رنين أجراس تدق، واصلا السير حتى انتهى الممر الشجري وبُسطت الأرض أمامهما فوقفا ينظران بدهشة ولم يقويا على الحراك

فقال فهر: لابد أنها أرض الموتى!!

أومأت قائلة: نعم إنها هي

وفي أرض الموتى قامت شواهد القبور صفًا يتلو الآخر

كجندِ حربٍ، والغربان يعلو نعيقها كنواحي الأرامل، أرض ظلامها حالك، وأناسها لا يكفون عن قرع الأجراس لعل أحد يسمع، ويأتي لإنقاذهم

تركا خلفهما غابة الأشجار وظلمتها ليتقدما نحو أرض أكثر إظلام ووحشة، ما إن وطأتها قدميهما حتى أحسا بانقباضة في القلب

نظرت رنوة حولها والرعب الذي بداخلها تخبئه خلف نظرة ثابتة ترمق بها الأجراس التي لم تتوقف عن الرنين لحظة وكأن أحد ما يحركها ثم قالت لفهر: والآن ماذا سنفعل؟

أجابها بينما يخرج القلادة من جيبه:

ليس لدي أدنى فكرة

التمعت القلادة في الظلمة فتوقفت الأجراس عن الرنين وكفت الغربان عن النعيق، وبدأت في النظر إليهما

الصمت كان مقلقًا ولكن نظرات الغربان ذات العيون الحمراء إليهما كانت أكثر إقلاقًا وهذا ما جعله يعيد سريعًا القلادة إلى جيبه فعادت الأجراس

تدق، لكن الغربان طارت للأعلى مكونة حلقة في السماء المظلمة فوقهما ثم بدأت في التساقط عليهما كالسهام المسلطة

نظرا مرتجفين لبعضهما البعض بينما وضعت رنوة يدها على سيفها لكن قبل أن تخرجه من غمده، انشقت الأرض فابتلعتهما

صرخت رنوة متألمة فقد ارتطم رأسها بصخرة وانسالت الدماء الساخنة على وجهها بينما شعرت بفيلق من الحشرات يدبو على جسدها, حاولت الحراك لكنها لم تقوَ، فظلت تصرخ مستغيثة، شعرت بيد تمسك بها، كانت تلك يد فهر والذي ما أن لمسها حتى أبصرت عينيها تلك الأشباح التي تلتف حولهما, أفلت يدها فعادت عينيها ترى الظلمة وعادت الحشرات تدبو على جسدها خلع عنه القلادة فرأته عندها صرخت: ما الذي يحدث أين نحن؟

أجابها بينما يمزق قميصه ويربط رأسها ليوقف النزيف:

القلادة تدخلني لعالم الموتى، تجعلني أراهم ويرونني, كوني على مقربة مني

التصقت به مرتجفة، نظر إليها ثم وضع القلادة حول عنقه وخبأها تحت ثيابه، عادت الأشباح للظهور لكن هذه المرة أمسكت بهما وقادتهما داخل ممر طويل

أمسكت رنوة بقوة في يده وقالت:

- فهر أنا خائفة

أجابها: لا تقلقي سيكون كل شيء على ما يرام

"أتمنى هذا" قالها في نفسه

ألقوا بهما في غرفة تعج بأشباح آخرين، البعض يطفو في سقف الحجرة والبعض الآخر جلوس، وقفا في منتصف الحجرة ينظران حولهما في ريبة بينما قالت رنوة بشيء من الندم: لقد أخطأت خطأ فادح إذ أتيت معك بدلا من سديم حرى به أن يكون هنا مكاني وسط تلك الأشباح

من السقف هبط لهما أحد الأطياف وحياهما:

مرحبًا بالموتى الجدد ولكن من أي أرض أنتما؟

نظرا إلى بعضهما البعض ولم يجيبا

وقف الطيف إلى جوار فهر لكن قدميه لم تكن تلامسان الأرض وبعد أن تفحصهما قال:

لما لا يبدو عليكما شحوب الموتى؟

تركاه وابتعدا فتبعهما قائلا: لقد عرفت, لابد أنكما من أرض النوايا فالأطياف الصالحة التي تأتي من هناك يقال أنها لا يبدو عليها أثر الموت، لكني لم أرَ أي أطياف صالحة تأتي من هذا الجزء من العالم، جميعهم يأتون كأطياف سوداء منفرة إنهم لا يضعونهم ها هنا معنا، بل يخصصون لهم جزءًا آخر، هذا إذا وجدوا من يضعوهم فيه

سأل فهر: ما الذي تعنيه؟

- ها أنت ذا تتحدث حسبتك أخرسًا

رد فهر: لا لست كذلك، ولكن دعك مني وحدثني أكثر عن موتى أرض النوايا

قال الطيف: إنهم جدًا قليلون، يهربون من الموت بل ويراوغونه، لكنه عندما يتمكن منهم يريهم عذابات لا قبل لهم بها

سأل فهر: ألم يأتِ أحد من هناك منذ أيام

رد الطيف: سمعت أنهم استقبلوا أحد الموتى القادمين من أرض النوايا يقال أن الساحر قتله

نظر فهر ورنوة لبعضهما البعض ثم سأل فهر الطيف:

- أهو من قال أن الساحر قتله؟
- لا أعلم, ولكن الأخبار جاءت على هذا النحو

سمعوا صوت ضجة ثم فتحت الحجرة وأخرجوا الأطياف وأوقفوها صفًا

سألت رنوة: ماذا يحدث؟

أجاب الطيف: سيتم تصنيفنا

وقفوا بالصف وسيق بهم إلى قاعة عظيمة بها مكاتب عدة، دفع بهم إلى أحدها والتي جلس عليها طيف أمامه دفتر هائل نظر إليهما قائلا:

ما اسمكما؟

أجاباه فهر ورنوة :

بفتور ألقى نظرة على دفتره ثم حدثهما:

غريب لم يدرج اسمكما بالكشف!

باهتمام بالغ عاد يبحث في دفتره من جديد

ثم قال: من أي أرض أنتما؟

أجاب فهر: من أرض النوايا

قال الطيف: منذ عهدٍ لم نسمع عن أرض النوايا شيء ولم يأتينا منها أحد، والآن يلقى إلينا بثلاثة دفعة واحدة! ماذا هل بدأت أرضكم في التخلي عن أبنائها؟

لم يجيبا

فقال الطيف: أشك في أنكما موتى.. فلدينا حسابات دقيقة واسمكما ليس مذكور في الكشف

- بلى إننا كذلك ولكننا أطياف صالحين

تبسم الطيف قائلا: تلك أكذوبة، الصالحون لا يأتون إلى هنا

- لكن إلى أين يذهبون؟
- هذا ليس من شأنك

ثم أشار لأحد العاملين قائلا:

خذهما إلى حجرة الاحتجاز إلى أن نعلم ما الذي جاء بهما وكيف دخلا إلى هنا ألقي بهما داخل حجرة مظلمة، وأغلق عليهما ببابٍ من فلاذ جلسا متلاصقان, قالت رنوة بيأس: لقد انتهى أمرنا سنبقى هنا للأبد

رد محاولا تهدئتها: لابد من مخرج لن نموت ونحن على قيد الحياة

قالت رنوة مرتجفة: لقد بت أكره هذه الأرض أكثر من ذي قبل, أرجوك فلتفعل أي شيء وأخرجنا من هنا سريعًا

- حسنًا دعيني أفكر وسأجد حلا

ازدادت الحجرة رطوبة وشعرا بالقشعريرة تدب بأوصالهما، كانت رنوة قد فقدت كل رباطة جأشها عندما وصلت لهذه الأرض، وبدت وكأنها تبدلت لشخص آخر فساعة فقط من الاحتجاز في هذه الغرفة جعلتها تحدث فهر باكية: أنا جائعة

أخرج فهر من جيبه آخر كسرة خبز كان يحتفظ بها وأعطاها لها، فالتقمتها على الفور

حدثها فهر متعجبًا:

ما الذي أصابك؟! حسبتكِ أقوى من هذا!

ردت: وأنا أيضًا

ثم ارتسمت على وجهها نصف ابتسامة خازية وقالت:

لكن عندما يقترب المرء من الموت تسقط كل الأقنعة، لقد كنت دائمًا أتصنع القوة وخلف هذا القناع كنت أخبئ هشاشتي المفرطة ،أما الآن وقد دنوت من الموت بل وأصبحت في أرضه، فما عاد بي حاجة للتصنع

- إذا كان لكِ أمنية أخيرة فماذا تكون؟

ردت مفزوعة: لمَ هذا السؤال؟ ألم تخبرني بأننا سنخرج من هنا

حاول تهدئتها مجيبًا: نعم سنفعل، لكنه مجرد سؤال لتمضية الوقت لا أكثر

فكرت مليًا ثم تنهدت قائلة:

أتمنى أن أرى والدي, لقد ذهب وهو مني غاضب ولم أمتلك الفرصة لأعتذر له

صمتت برهة ثم عادت تقول:

أخبرني ما هي أمنيتك أنت، أتريد استعادة سنواتك؟ ذاكرتك؟ أم أنك تريد أن تثبت براءتك؟

تأمل الظلمة حوله ثم أجابها:

صدقيني لو أخبرتك أني أشك في رغبتي في أي منهم

- لعلك تريد العودة لأرضك
- ربما، لكني لا أتذكر أي شيء عنها لأشعر بالحنين إليها

فالعاطفة لا تتحرك نحو الأشياء المنسية

- إذًا ما الذي تريده؟
- ألا تقطع رأسي أو أتعفن هنا؟
- تبدو فكرة جيدة

ظلا في صمت مطبق لبعض الوقت شعرت فيه رنوة بالنعاس فقالت: فهر

- نعم
- ماذا سيحدث إن أفلت يدك ؟

رد بشيء من الخبث: ستأكلكِ الديدان

- لكني أشعر بالنعاس وأخشى إن غرقت في النوم أن تفلت يدك

رد فهر: لا تقلقي سأظل مستيقظًا لأجلك

نامت قريرة العين مطمئنة أن لا مكروه سيصيبها طالما فهر إلى جوارها

عندما فتحت عينيها في المرة الثانية كان فهر يغط في النوم بينما يحتضنها وشعرت بالسعادة تغمرها عندما تأملته وهو قابض بيده على يدها وكأنه يخشى إضاعتها، لم يدم تأملها له كثيرًا إذ سمعا صوت صخب بالخارج فاستيقظ فهر يسأل: ماذا حدث؟

وأسرعا ينظران عبر طاقة بالباب فوجدا صفًا من

الأطياف يسير وفي نهايته ذلك الطيف الذي حدثهما أول مرة فناداه: أيها الطيف انتظر

نظر إليهما ثم اقترب من الباب قائلا:

لقد احتجزوكما هنا يبدو أنكما مجهولان لديهم

- " أريدك أن تخرجنا " طلب فهر من الطيف

رد الطيف: لا يمكنني

- سأعطيك كل ما تريد لكن أخرجني من هنا

- ما الذي قد يحتاجه طيف يقبع في أرض الموتى؟

رد عليه الطيف مبتسمًا ثم تحرك خطوات مبتعدًا

صرخ فهر: إنني أحمل قلادة القمر

توقف الطيف عن الحراك ونظر خلفه ليجد ضوءً يخرج من فتحة بالباب، تراجع للوراء حتى وقف أمامه وحدث فهر: لابد أنك أنت الساحر!

- لا يهم من أكون فقط أخرجني من هنا

وعلى ماذا سأحصل ؟ سأل الطيف

أجابه فهر: سأخرجك من أرض الموتى

قال الطيف متشككًا: لو كان باستطاعتك لأخرجت نفسك

رد فهر: باستطاعتي ذلك لكنى أريد مقابلة أحد ما أولًا

ظل الطيف يفكر ثم بعد برهة أجاب: حسنًا سأساعدك

قالها ثم رحل فصرخ فهر: إلى أين أنت ذاهب؟

رد: سأختلس المفاتيح من حارس الممر أم حسبت أن بإمكاني اختراق هذا الباب لمجرد أني طيف؟!

قال فهر مذهولًا: ألا تستطيع؟!!

رد الطيف: تلك خرافة يا عزيزي، لذا لا تصدق كل ما تسمع

انتظرا لبعض الوقت قبل أن يأتي الطيف ويفتح لهما الباب

خرجا فقال الطيف: علينا التحرك من هنا سريعًا قبل أن يأتي الحارس ويكتشف أمرنا

خرجوا من الممر فسأل الطيف: من الذي تود مقابلته؟

رد فهر: أريد رؤية ذلك الوافد الجديد من أرض النوايا

قال الطيف منفعلًا: هذا محال! إنه يقبع في سابع أرض حيث يُعذب، تقيده أغلال من حديد وروحه تنصهر بنارٍ تلظى، وعلى أعتاب زنزانته يقبع مارد من الجان لا يغفو إلا للحظات كل ألف عام

سأل فهر: أليس من سبيل إليه؟

رد الطيف: ألست بساحر؟ افعل ما يفعله السحرة

- وماذا يفعل السحرة؟

قال الطيف: سمعت أن قلادة القمر تقتل جيش من المردة لا مارد واحد، لذا اقتل المارد تخلو لك روح الرجل

نظر فهر إلى رنوة ورأت في عينيه أنه أجهل الناس بما عليه فعله, لكنها سمعته يخاطب الطيف قائلا:

نعم سأقتل المارد خذني إليه

تقدمهم الطيف فتبعاه وهمست رنوة بأذن فهر:

هل بإمكانك فعل ذلك؟

أجابها: سأحاول

علمت حينها أنهما لابد سيقعان في مأزق كانت الأطياف تسبح عاملة وأخرى مقيدة لتلقى ألوان من العذاب وفوق رأس كل واحد منهم خيط معقود بجرس أعلى مقبرته يقال له أقرع أجراسك فلا سامع لك اليوم ولا مجيب واصلوا سيرهم فرأوا أطياف تحمل الأحجار وتنقلها من موضع لآخر

فسأل فهر: ماذا يفعل هؤلاء؟

أجاب الطيف: إنها أرواح مسخرة لصالح الإمبراطور

- ما الذي يعنيه هذا؟

شرح الطيف: لقد كان هؤلاء أناس عاديين لكنهم باعوا أرواحهم للإمبراطور وهم على قيد الحياة لذا خسروا حياتهم وموتهم أيضًا

- وماذا يعملون؟

يعملون كل ما يريد الإمبراطور لكن جزء كبير منهم بناة يبنون له حصون وقصور

سألت رنوة: وماذا عن السد؟

رد الطيف: أي سد؟ لم يبني الإمبراطور أي سد

قالت رنوة: لكنه وعدنا ببناء السد وأخذ رجالنا لأجل ذلك، وقد مرت سنوات ولم يعد رجالنا ولم يعد النهر ليجري في أرضنا دون أن نعلم لذلك سبب!

- لقد غير النهر مساره, وقريبًا ستجف أراضي الإمبراطورية جميعها

- كيف عرفت هذا؟

لقد أخبرتني بهذا أرواح غرقت في النهر أثناء رحلة استكشاف

- أريد محادثة تلك الأرواح المسخرة

سأل الطيف: وماذا تريدين منهم؟

- سوف أسألهم عن شخص ما
- لا أظن أن بمقدورهم الإجابة على شيء

لم تترك رنوة الطيف ليكمل حديثه فقد ذهبت مع فهر إلى الأرواح المُسخرة لتسألهم عن والدها, لكن لم يجيبها أحد فأوقفت واحد منهم وسألته عن اسمه فوقف مذهولًا ومتحيرًا كأنها سألته كم عدد حبات الرمل في الصحراء الكبرى

اقترب الطيف منها قائلا:

لا تجهدي نفسك بسؤالهم فتلك الأرواح قد نسيت كل شيء عن حياتها السابقة

حينها مر والدها من أمامها فركضت نحوه توقفه كان يحمل حجر ضخم نادته: أبي!

لكنه لم يلتفت فوقفت أمامه قائلة:

أبي كيف حالك؟

لم يجيبها فتابعت: كيف انتهى بك المطاف هنا؟ لمَ بعت روحك للإمبراطور

طيف أباها وقف أمامها شاخص البصر زائغ العينين وحتى بعد أن التقت عينيه بعينيها لم يتعرف عليها

عادت تقول: أبي, إنني رنوة ابنتك.. ألا تتذكرني؟

ظل طيف والدها صامتًا لاينبس بكلمة

فقال صديقهما الطيف:

هو لا يتذكر شيء مما سبق هو لا يتذكر حتى اسمه

نزلت الكلمة كالصاعقة على قلب فهر الذي وجد في ذلك الطيف صورته، وقد نسي تمامًا أنه خاض غمار تلك الرحلة لأجل ذاكرته وفكر هل روحه ستكون هائمة مستعبدة كمثل روح هذا الرجل ..

حاول طيف والدها الرحيل قائلا:

اعذروني لدي عمل لأقوم به

تشبثت به رنوة بينما يحاول الرحيل قائلة:

لدي شيء أقوله لك قبل أن ترحل

- ماذا تريدين؟

قالت: أنا آسفة على ما فعلت, أجبرتك على الرحيل مع رجال الإمبراطور، اتهمتك بالخيانة لعدم رغبتك في الذهاب، لقد كنت محقًا كانت خدعة لا أكثر, سامحني يا أبي

نظر طيف والدها إليها وقال متعجبًا:

أسامحك! ولكن هل أعرفك؟

شهقت باكية بينما يبتعد طيف والدها عنها راحلًا

احتضنها فهر مواسيًا بينما قال الطيف معهما:

علينا الرحيل نحن أيضًا، إذا أردتما الوصول إلى رجلكماقبل أن ينكشف أمرنا

ظلت رنوة واقفة مكانها تأبى الانصراف فحدثها فهر:

هيا يا رنوة لا شيء هنا لتفعليه

أومأت برأسها بينما دموعها تنبثق غزيرة من مدامعها كنهرين تفجرا حديثًا بينما يواصلون التوغل في أعماق أرض الموتى اقتحمت أنوفهم رائحة شنيعة كادوا يتقيؤون من فرط بشاعتها وسوئها فأحكموا إغلاق أنوفهم ليتجنبوا الرائحة لكن بالكاد استطاعوا ذلك

فسأل فهر: ما تلك الرائحة؟

رد الطيف: لقد اقتربنا من موضع صديقك

وعلى أعتاب ممر مظلم قال الطيف:

من هنا أكملا الطريق بدوني

سأل فهر: لمَ؟

- ليس بوسعي التقدم أكثر

وكيف سنصل إليه؟ سأل فهر

- اتبعوا الصراخ، أكثرهم صراخًا وتوسلًا هو رجلكم

تقدما والخوف يربط أرجلهما وقلبيهما, قد غادر صدرهما فزعًا، سمعا صراخ وعويل تبعه صوت توسل

أرجعوني لأكون تقيًا سأعمل صالحًا أعدكم يجيب معذبه: كلا، كاذب كعادتك، إنها كلمة أنت قائلها

وعلى كل غرفة يمرون فيسمعون ذات التوسل والصراخ وذات الإجابة تكون دائمًا وقف فهر أمام غرفة مقيد صاحبها بأغلال من نيران بينما صراخه يصم الآذان وجسده بدا كقطعة من لحم متعفن

سألت رنوة: هل هذا هو؟

- نعم

تحدث فهر إلى الطيف المعذب:

أنت.. أتتذكرني؟

كان الرجل مطأطئًا رأسه ولما سمع الصوت رفع رأسه ونظر لفهر بدهشة قائلا: من يحدثني؟

رد فهر: أنا من أعادك لأسرتك حين كنت تحتضر

نظر لفهر متفحصًا ثم التمعت عيناه قائلا:

نعم إنه أنت, ولكن كيف تأتي روح طيبة مثلك إلى هنا؟

- أنا لم أمت

لم تمت! ولكن ما جاء بك لأرض الموتى؟

أراه قلادة القمر قائلا: جئت لأخرجك من هنا

تخرجني! يا لسعادتي إن استطعت فعلها!

قال فهر: لكن بشرط

سأوافق على أي شرط, فقط خلصني من عذابي

- عليك أن تعترف بأني لم أقتلك

رد الطيف: ومن قال أنك فعلت؟

- بعد أن مت أنت قيل بأني ساحر وبأني قتلتك
- لكنك لم تفعل بل حاولت مساعدتي!
- نعم وهذا ما أريدك أن تقوله

قال الطيف المعذب: إذا كان هذا ما تريده فسأفعله فقط أخرجني

قال فهر: عدني أولًا أني إذا أخرجتك أن تقول الحقيقة

- أعدك أني سأقول الحقيقة كاملة ولا شيء غيرها

حينها ظهر أمام فهر ورنوة ماردًا ضخمًا تشتعل من يده النيران قال بصوت هادر:

ماذا تفعلان هنا؟

ركضا وهربا داخل الممر لكن المارد كان يظهر أمامهما في كل مرة حتى أمسكهما بيد واحدة فاشتعلت ثيابهما

كانا عاجزين تمامًا فصرخت رنوة:

استخدم قلادة القمر

- كيف لا أدري؟

فقط أخرجها وافعل أي شيء

عندما أخرجها وتلألأ ضوئها في الظلمة ارتجف المارد وأسقطهما أرضًا

قالت رنوة: إنه يخافها

رد فهر: لكن ماذا عليّ أن أفعل بها؟

ولما رأى المارد أنهما عاجزين عن استخدامها عاد يراوغهما من جديد حتى أمسك بهما ومن رعب فهر ضغط القلادة بيده فتحولت لخنجر من نور أبيض فغرس الخنجر في قلب المارد فتلاشى متحولًا لدخان، سقطا أرضًا ثم أسرعا يفتحان الباب ويحرران الطيف المعذب، استخدم فهر خنجر النور لقطع الأغلال ثم أسرع ثلاثتهم ليخرجوا من الممر المظلم، عندما خرجوا كان الطيف الآخر ينتظرهم فقال لهم: هيا أسرعوا علينا الارتقاء للأعلى إذا أردنا الخروج, وعندما وصلوا لأعلى نقطة يمكن الوصول إليها بأرض الموتى كان الحراس على أعقابهم حينها كانت قلادة القمر مازالت متحولة لخنجر من نور وفهر عاجز عن إعادتها لسابق عهدها، ضغطها وفركها بيده بل وتوسلها ولكن لا شيء يحدث

حاصرتهم الأطياف لكنهم كانوا يخشون الاقتراب مخافة الخنجر الذي يحمله فهر لكنها كانت مسألة وقت لا أكثر ويجهزون عليهم، فاختطفت رنوة الخنجر من فهر وقربته من جيدها فعادت لصيغته الأولى فارتدت القلادة التي خرجت منها هالة عظيمة من الضوء أعمت الجميع

عندما أبصروا مرة أخرى وجدوا أنفسهم خارج أرض الموتى وحولهم تمتد شواهد القبور ولكن الأجراس كانت تقرع بعنف بالغ, أبصر فهر الطيفين فوجدهما قد أصبحا هيكلين عظميين بالكاد تكسوهما قطعة لحم

نظر الطيفان لنفسيهما في تعجب بالغ وكادا يطيران فرحًا

فقال الطيف الأول: علينا الرحيل عن هنا فهم سيخرجون لأجلنا قريبا

أيدوه في رأيه خاصة وأن الغربان ذات العيون الحمراء كانت تراقبهم من فوق الأشجار

حينها أعادت رنوة القلادة لفهر وأفلتا يد بعضهما البعض وكانت تلك هي المرة الأولى التي ينفصلان فيها منذ مجيئهما لأرض الموتى

دخلوا الغابة ومضى الطيف الأول مبتعدًا عنهم

فحدثه فهر: ألن ترافقنا؟

أجابه: أردت الخروج لأكون حرًا لا أن أقيد بالسير معكما

- لكن ألن تخبرني ما اسمك؟
- علمني الموت أنك إذا أردت التحرر من الماضي تخلى عن اسمك لذا تخليت عنه

قالها الرجل العاري بينما يرحل مبتعدًا

فكر فهر لبرهة فيما سمع قبل أن ينزع معطفه ويعطيه

للرجل الواقف إلى جواره ثم قال: علينا الإسراع قبل أن يلحقوا بنا

ركض ثلاثتهم داخل الغابة حتى وصلوا إلى القارب

فركبوا به وأبحروا مبتعدين وبينما يفعلون

رأوا أشجار الغابة تتحرك بشدة ثم توقف الحراك فجأة

فقال فهر: إنهم يقفون على الضفة

سألت رنوة: من؟

- الموتى

"لابد أنهم يريدونني" قال الرجل من أرض النوايا

قال فهر: لا بل يريدوننا جميعًا

- فلنسرع بالرحيل إذًا أنا لن أعود إلى هناك أبدًا

فقالت رنوة: هل بإمكانهم أن يتبعونا؟

- لا أظن ذلك فهم واقفون هناك لا يجرأ أحدهم على التقدم رد فهر

مضوا في سبيلهم مخلفين الموتى واقفين على الضفة

سأل الرجل: إلى أين سنذهب؟

رد فهر: إلى قصر الإمبراطور

فقالت رنوة: لا أحد بإمكانه دخول قصر الإمبراطور لذا علينا التوجه لأرض الخسة وهناك سنجد من يدخلنا للقصر

ليالي الإبحار طالت بهم، وإن كان جمعهم الطريق وقارب واحد إلا أن الهدف فرقهم فلكل منهم غاية من رحلته

قال الرجل من أرض النوايا: ماذا فعل أهلي من بعدي؟

أجابه فهر: فعلوا ما كنت أنت فاعله لقد كذبت امرأتك واتهمتني بقتلك وبأني ساحر

- لكن امرأتي ما كانت تكذب قط! ما الذي دفعها لفعل ذلك؟

رد فهر: اذهب فاسألها ، فقد تحدثت عن عار ما سيطول أبنائها

قال الرجل من أرض النوايا بحسرة :

مسكينة لو علمت ما فعلت أثامي بي ما كانت لتكذب أبداً

صرخت رنوة: ها هو مرسى أرض الخسة

عندما وصلوا للبر وقفوا أمام البوابة وعلى أعتاب أرض جديدة تذكر فهر قول القائد له:

إذا ما وطأت قدمك أرض الخسة فاعلم أنك في شأن غير شأنهم، ولا تبصر بعينيك بل أبصر بقلبك ففي هذه الأرض المبصر بعينيه أعمى، واعلم أن حالك ليس كحالهم فأنت غريب وعليك أن تظل كذلك فلا تألف قولهم فيصبح قولك ولا فعلهم فيصبح فعلك مر سريعًا، ولا تستوطن

أفاقه من شروده لكزة من رنوة إذ قالت: هيا علينا الدخول قبل أن يرانا المترصدون

"المترصدون!" قالها متذكرًا لقائه السريع معهم في أرض النوايا

سألها: من هؤلاء المترصدون وما شكلهم؟

أجابته: المترصدون ليس بوجوههم إلا أفواه كالبوق وآذان كبيرة كالقباب تلتقط أضعف الأصوات وأقلها وإذا ما همست سيقبضون عليك حتى نبض قلبك بإمكانهم سماعه، ويقال أنهم يرون بالصدى أفضل مما ترى أنت بعينيك، وأنك إذا أصغيت إليهم سمعك فبإمكانهم أن يتحكموا بأفكارك لذا صم سمعك عن أصواتهم

- ما الذي تعنيه بأنهم يتحكمون بأفكاري؟
- إنهم رجال الإمبراطور, صدى واحد من أصواتهم وسوف تطيع كل ما يقولونه وما يقوله الإمبراطور بالطبع

كان عليهم الانتظار حتى الصباح لتفتح البوابة لكن لحسن الحظ مر حشد من حملة الأعلام أمامهم ففتحت البوابة لأجلهم، فاختبأوا داخل الحشد وتسللوا معه كانت تجهيزات الاحتفال الذي سينعقد بعد أيام قليلة تجري على قدم وساق, ساروا في شوارع المدينة التي أضاءتها المشاعل, لم يكن هناك الكثير من الناس في هذا الوقت المتأخر من الليل لكنهم شعروا بالريبة إذ أن كل مار من جوارهم ينظر إليهم متفحصًا, وما هي إلا لحظات حتى أدركوا سبب ذلك فقد اقتربت رنوة من أحد الحوائط قائلة:

انظر يا فهر إنها صورتك!

اقترب فوجد وجهه مرسوم على ورقة ومكتوب أسفل منها مطلوب بتهمة القتل، وعلى حائط آخر رسمة مشابهة لها

قالت رنوة: عليك الاختباء, لم يعد الشارع آمنًا

- ولكن إلي أين سنذهب؟
- إلى الراهب مقدام هو سوف يساعدنا

اتجهوا نحو شارع جانبي وعبروا الأزقة المظلمة للمدينة خشية أن يراهم أحد، بعد نصف الساعة من السير وقفوا أمام بيت بناءه الطوب وعلى باب البيت أضاء مصباح زيتي تقدمت رنوة وطرقت الباب مرتين، انتظرا برهة قبل أن يسمعا مزلاج الباب يتحرك ثم فتح الباب ليخرج رجل أربعيني يرتدي سروالا أزرق من كتان وقميص رمادي من صوف، تناثر الشيب برأسه، وبدا على وجهه الناعس ملامح البراءة، فرك عينيه الرماديتين ليستحثهما على الصحو، بينما حرك أذنيه المدببتين عندما تحدثت رنوة قائلة:

هل سنظل واقفين في الخارج لوقت طويل؟

فتح الراهب عينيه على آخرهما قائلا:

رنوة مرحبًا بكِ، هلمي للداخل

تنحي جانبًا وأفسح لها المجال فدخلت وتبعها فهر والرجل من أرض النوايا

فقال الراهب: أرى أن لديكِ صحبة جديدة

أومأت برأسها

عاد الراهب يقول:

لقد مضى وقت منذ أن رأيناكِ, ما الذي عاد بكِ إلى أرض الخسة؟

- إنها قصة طويلة لاحقًا أقصها عليك، لكن أخبرني أولًا هل جاءك سديم؟
- نعم لقد جاء هو والمرأة العجوز والفأر الناطق
- وماذا فعلت معهم؟

رد الراهب: أدخلتهم للقصر كما أردتِ

"حسنًا فعلت" قالتها بينما تريح جسدها المجهد على الأريكة

فقال الراهب: يبدو عليكم الإرهاق والجوع سأعد لكم شيئا لتأكلوه

أعد لهم الطعام وعلى الطاولة ظل الراهب يحدق في فهر والرجل بصحبته والذي لم تمتد يده للطعام، وكأنما يود قول شيء لكنه لا يجرأ, وأخيرًا نطق قائلا:

ألست الرجل المطلوب بتهمة القتل؟

انحشرت اللقمة بحلقوم فهر وجاهد في ابتلاعها ثم

قال: لم أقتل أحد وها هو أمامك فاسأله إن كنت قتلته أم لا

ارتجف الراهب قائلا: أتقصد أنه ميت؟!

ردت رنوة: نعم إنه كذلك

- شكي كان في محله فيده لم تمتد لطعام أو شراب وجسده شاحب كشحوب الموتى وتنفسه لا يكاد يسمع, ولكن كيف بإمكاني أن أصدق أن ميت يجلس على طاولتي هذا غير معقول!! كيف فعلتموها؟!

قال الراهب بينما يمسك بيد مرتجفة كوب الماء ويلقي به في جوفه دفعة واحدة

- لقد ذهبنا إلى أرض الموتى

قالها فهر بينما يخرج من جيبه قلادة القمر

- أنت تمتلك قلادة القمر! قال الراهب بينما يحملق في القلادة منبهرًا ثم تابع: يقال أن تلك القلادة تصنع المعجزات، ولكن كيف حصلت عليها؟

أجاب فهر: لقد انتزعتها من صاحبتها

- وماذا حل بها؟

رد فهر: سقطت بوادي العظام أظنها لقت نحبها

- أنت لن تتأكد حتى ترى جثتها

بدا على فهر القلق وتذكر قول بنت القمر له فازداد قلبه اضطرابًا

سألت رنوة: متى سيقام الاحتفال بعيد النهر؟

- بعد أربعة أيام
- ومن سيحضر الاحتفال؟

رد الراهب: كل سكان الإمبراطورية مدعوين

قالت رنوة: علينا التحدث مع الإمبراطور بشأن السد,

- يقال أنهم مازالوا في مراحل بناءه,
- ذلك كذب يا مقدام الإمبراطور لم يبنِ أي سد, والنهر قد غير مجراه وقريبًا سيترك النهر أرضنا للأبد
- هذا أمر خطير يا رنوة ولكن كيف عرفتِ به؟
- في أرض الموتى قابلت من أخبرني

سأل الراهب: ماذا عن الرجال الذين أخذوهم من أجل بناء السد؟

أجاب فهر: لقد سخر الإمبراطور أرواحهم لخدمته

- أتقصد أن الإمبراطور كذب علينا؟

أجابت رنوة: نعم

فعاد الراهب يقول:

لكن الناس هنا تتحمل الجوع والعطش على أمل أن السد يُبنى وأن أيام الازدهار ستعود قريبًا

سألت رنوة: ماذا سيفعل الناس إذا عرفوا الحقيقة؟

- الناس مجبرون على السمع والطاعة يا رنوة

تحدثت رنوة: صمتوا أو تحدثوا حياتهم مهددة في كلتا الحالتين

- يا رنوة النهر أرحم بهم من الإمبراطور

"أدخلني يا مقدام للقصر وأنا سأتحدث مع الإمبراطور"

ترجت رنوة الراهب الذي أجابها:

لا أحد بإمكانه مقابلة الإمبراطور أو محادثته يا رنوة لا أحد

تحدثت رنوة منفعلة: لكنى مصرة على الذهاب سواء ساعدتني أم لم تساعدني

فقال الراهب نافد الصبر: حسنًا سأساعدك

حينها قفز الفأر لمنتصف الطاولة قائلا:

مرحبًا بك يا فهر

ارتجف الحضور مبتعدين عن الطاولة لكن فهر عاد ونظر للفأر قائلا:

ألن تكف عن ألاعيبك تلك؟ أنت تسبب الرعب في كل مرة تظهر فيها

عادوا وجلسوا حول الطاولة فقال الراهب:

لقد نسيت أن أخبركم لقد بقي الفأر هنا لكنه يذهب من وقت لآخر إلى القصر ثم يعود

قال الفأر محدثًا فهر:

ظننتك لن تعود من أرض الموتى

رد فهر: وها أنا ذا عدت

- ماذا فعلت هناك؟

"لقد جلبته" قال فهر بينما يشير للرجل من أرض النوايا

قال الفأر فرحًا: الآن تستطيع إثبات براءتك

- سأذهب أولًا للقصر، رنوة تريد التحدث مع الإمبراطور بينما أنا سأحاول استعادة سنواتي
- لقد رأت ديالا خزنة الإمبراطور وهى ممتلئة بالسنوات
- سأل فهر متلهفًا:

أهذا صحيح! ..ولكن هل جلبت شيء؟

- لم تستطع, فرجال الإمبراطور يحرسونها ليل نهار

تحدث فهر: إذًا علينا وضع خطة للوصول إلى الخزنة

قال الراهب: غدًا سأدخلكما للقصر على أنكما أحد الخدم

في الصباح بدلا ثيابهما وذهبا مع الراهب إلى بوابات القصر وهناك حدث الراهب مقدام أحد حراس البوابة قائلا: كيف حالك يا صُبيح؟

تهلل الحارس مجيبًا: بخير أيها الراهب

فقال الراهب : لقد جئت بخادمين جدد

قال الحارس بنوع من الحرج: لكننا لسنا بحاجة إلى خدم أيها الراهب

تحدث الراهب محاولا إقناع الحارس: لكنهما فقيرين وبحاجة ماسة للمساعدة، ولابد أن هناك شيء ما ليفعلانه بالقصر خاصة وأن الاحتفال بالعيد وشيك

أجاب الحارس: لقد جلبنا الكثير من الخدم.. ولكن...

قال الحارس ثم صمت برهة يفكر وبعدها قال: لأجلك أيها الراهب سأدخلهما "بوركت يا بني" قالها الراهب مقدام بينما ترك رنوة وفهر مع الحارس ومشى مبتعدًا

فتحت البوابة لتستقبلهم ساحة عظيمة تمتد لكيلو مترات, ركبا عربة يجرها حصان ليصلا إلى القصر الذهبي الشاهق الارتفاع والذي برزت شرفة كبيرة منه هي المنصة التي يخاطب منها الإمبراطور الشعب

رأوا صفًا من رجال الإمبراطور يسير نظر إليهم فهر متفحصًا فقالت رنوة: لا تنظر إليهم فيشكوا فينا

- لكن هل باستطاعتهم الرؤية؟
- أخبرتك أنهم يرون بالصدى

حينها التفت أحد المترصدين لفهر فرأى وجه يخلو من التعبيرات فقط فم كبير وأنف مستدق والرأس صلعاء والأذنان مقعرتان ترصدان أقل الهمس، حينها جذبت رنوة فهر وأسرعا بدخول القصر.

داخل القصر كان الجميع يركض في كل اتجاه، داخل المطبخ من أجل إعداد الطعام للضيوف, وفي الممرات وضعت الزينة من أجل استقبال كبار زوار الإمبراطور يوم الاحتفال، ولدى دخول فهر ورنوة تم تفرقتهم إذ ألقي برنوة داخل غرفة التنظيف لغسل مفروشات القصر لتكون نظيفة يوم الحفل, بينما حمل فهر أجولة من الدقيق من المخزن إلى المطبخ ليعجنها الخباز ظلا طوال النهار في كبد دون أن يرى أحد منهما لحظة من راحة

في المساء تولى الخدم إلى مضاجعهم يلتمسون الراحة في نوم عميق، تسللت رنوة إلى المطبخ حيث كان ينتظرها فهر، سارت بين الأنية النحاسية تتلفت يمنة ويسرة وفجأة حدثها صوت:

ها أنتِ ذا

انتفضت ثم اتطمأنت إذ رأت فهر يخرج من خلف الموقد

فقالت: لقد عدنا من أرض الموتى حديثًا, أتود ارجاعي لها مجددًا؟

رد: عذرًا لم أقصد إخافتك

مضيا يبحثان عن ضالتهما فارتقيا الدرج فسألها فهر:

هل رأيتِ ديالا؟

أجابته: لم أرها ولكني سألت عنها، يقال أنها أصبحت الخادمة الخاصة بالإمبراطور

- إذا عثرنا عليها سوف نصل بسهولة للإمبراطور
- أتمنى هذا
- ألا تعرفين بأي غرفة تقطن؟

- أخبروني أنها بالطابق الثاني الغرفة الخامسة ناحية اليمين

صعدا السلم بحذر شديد، وقد زاغت أعينهم على البهرجة التي تحيط بهم فالحوائط تزينها لوحات خطت بماء الذهب، والأعمدة الرخامية تكسوها أحجار من زبرجد وياقوت أحمر، حاولا قدر الإمكان ألا يتشتتان بما رأت أعينهما وصلا وطرقا الباب, كانا خائفين ألا تكون غرفتها وينفضح أمرهما ولكن اطمئنا عندما جاءهما صوتها قبل أن تفتح الباب فوقفا مذهولين لرؤيتها بالأخص رنوة التي كانت ترى الوجه الجميل لديالا لأول مرة، وقد شعرت بشيء من الغيرة فجمالها ملفت لحدٍ لا يطاق بالنسبة لأنثى أخرى وفكرت أن لا فرصة لديها مقارنة بجمال ديالا الخارق

أفاقت من أفكارها على صوت ديالا التي تقول:

ماذا تفعلان هنا؟ لا يجب لأحد أن يراكما عندي

"فلندخل إذًا قبل أن يرانا أحد" قالها فهر بينما يحاول الدخول ونظر بالغرفة فرأى رجل يطلق شهقات الاحتضار فسألها: من هذا؟ فقالت منفعلة: لا دخل لكما به اخرجا ثم أغلقت الباب بوجههما لتفتحه بعد لحظات وقد ارتدت ثوبًا فضفاضًا فوق قميصها الأخضر الحريري

دفعتهما أمامها حتى وصلوا لآخر غرفة بالرواق

أدخلتهما بها وفتحت الضوء ثم سألتهما:

ماذا تفعلان هنا؟

قال فهر: أخبريني أولًا هل حصلتِ على السنوات؟

أجابته: سنواتك ما زالت في خزنة الإمبراطور

سأل فهر: وماذا فعلتِ لتصبحي على هذه الحال؟

- توقف عن طرح الأسئلة وأخبرني ما جاء بكما

ردت رنوة: نريد مساعدتك في أمرين اثنين

- ما هما؟
- أن أقابل الإمبراطور وأن يحصل هذا الرجل على سنواته

ضحكت ديالا مجيبة: لا يمكن لأحد مقابلة الإمبراطور, أما بالنسبة للسنوات فهي في غرفة تحرسها أرواح مسخرة لا أحد يقترب من هذه الغرفة

- لكنكِ الخادمة الخاصة للإمبراطور وبإمكانك الدخول له متى شئتِ!

حسنًا, سأحاول مساعدتك ولكن فيما ستحدثينه؟

ردت رنوة: أريد أن أسأله عن السد

قالت ديالا على مضض: حسنًا اتبعاني

صعدوا للطابق الثالث واتجهوا ناحية اليسار وأمام الغرفة الثالثة وقفت ديالا قائلة:

تلك هي الغرفة التي يحتفظون فيها بالسنوات

وضع فهر يده على المقبض لكنه كلما حاول أن يديره شعر وكأن شيء ما يدفعه

قالت ديالا: لا تتعب نفسك ليس بإمكانك فتحها

حينها أدير المقبض وفتح الباب من الداخل فدفعت بهما ديالا سريعًا نحو غرفة مجاورة بينما تقول:

لقد كاد ينفضح أمرنا

سأل فهر: من كان بداخل الغرفة؟

ردت: إنهم رجال الإمبراطور, لقد نسيت أنه الليلة سوف يأخذ جرعة من السنوات

سألت رنوة: وكيف سندخل له؟

ردت ديالا: عندما يخرجون من عنده سوف ندخل نحن فهو يكون ضعيف للغاية عندما يأخذ جرعة السنوات ولن يكون في كامل وعيه ليقاوم أو يفعل

أي شيء آخر انتظروا لبعض الوقت ريثما تخلو غرفة الإمبراطور سمعوا خطوات تبتعد في الممر فأسرعوا بالخروج دخلت ديالا أولا ثم تبعاها عندما دخلوا لغرفة الإمبراطور وجدوه مستلقيًا على الفراش
كجثة متهالكة بطيئة الأنفاس متحشرجة الصدر، فتح عينيه كالمصروع قائلا: ماذا؟.... هل هناك زجاجات أخرى عليّ شربها؟

حينها نظر فهر للزجاجات الفارغة على الطاولة وشعر بالدوار يجتاح رأسه وضاق صدره حتى انطبق على قلبه لتهرب الدماء منه دون أمل في عودتها
أمسك بالثلاث زجاجات الفارغة وقرأ عليها فهر الغريب
وضع الزجاجات الفارغة بجيبه بينما سمع رنوة تحدث
الإمبراطور

- لمَ لم ترحم فقراء هذه الأرض؟ جعلتهم يبيعون أرواحهم لك لتسخرهم من أجل مصالحك

أجابها: كل واحد منهم قبض ثمن سُخرته

- ماذا عن السد الذي وعدت الشعب ببنائه ولم تفعل؟
- لم أذكر لهم في أي عام سأبنيه
- لكن الناس كادت أن تموت جوعًا وعطشًا

قالتها رنوة منفعلة

- الناس لن يموتوا جميعهم، وأنا راضٍ بمن تبقى

لأحكمه
أنت غير عابئ بشعبك إذًا بل بمنصبك!
اعتدل الإمبراطور جالسًا وقد بدأ مفعول السنوات يسري في جسده
من تكونين وماذا تريدين مني؟

- أنا أحد ضحاياك, وكل ما أطلبه منك أن تكون شجاعًا كفاية وتخبر شعبك بأنك مخادع وسارق

ظهر الغضب على وجه الإمبراطور وقام من مجلسه يتوكأ على عصاه قائلا: كيف تجرؤين على قول ذلك؟

سأجعل رجالي يلقون بكِ في زنزانة حتى تتعفنين

جذب فهر رنوة ليبعدها عن الإمبراطور قائلا: علينا الخروج من هنا

عاد الإمبراطور يستلقي على فراشه وقد أضناه الحديث والحراك

خرجوا وما إن فعلوا حتى رأوا أحد المترصدين

يرتقي السلم، ركضا رنوة وفهر ليختبئا في إحدى الغرف بينما تصنعت ديالا أنها تقوم بالاطمئنان على الإمبراطور

ما إن دخل فهر ورنوة الغرفة حتى أدير مقبض الباب فأسرعا يختبئان داخل خزانة الثياب فتح ضوء الغرفة، وبداخل الخزانة حبس فهر ورنوة أنفاسهما، كانت رنوة منشغلة بالنظر للخارج من أعلى كتف فهر عبر إنفراجة من الباب، بينما كان فهر منشغلا بالنظر إليها، تأمل عينيها فنسي تمامًا سنواته الضائعة وأنه ما عاد يتذكر شيء من أيامه الخالية، ورحلته المضنية التي باتت أهدافها واهية أمام عينيها، وأنه ما ربح شيء من كل هذا السعي إلا أن رافقها

بعد أن تفحصها مليًا حدثها: عينيكِ أكثر اسودادًا من ظلمة ليلٍ حالك

نظرت إليه متعجبة من قوله بل والتوقيت الذي يتحدث فيه لكنها جارته قائلة: ماذا؟ أتخشى الظلمة؟

- لا.....بل أخشى عينيكِ

فأسرعت بوضع يدها على فمه لتسكته ثم قالت هامسة لقد مر للتو أحد المترصدين من أمام الخزانة سمعا صوت يقول: لابد أن أحد هنا لقد سمعت شيء

رد زميله: لابد أن الأمر اختلط عليك فهناك الكثير من الخدم والكثير من الأصوات تصدر من تلك الغرف

نظر المترصد حوله متفحصًا ثم خرج هو وزميله وأغلقا الباب خلفهما

بعد برهة خرج فهر ورنوة من الخزانة وأسرعا بالتسلل خارج القصر

في الصباح كانا قد وصلا لمنزل الراهب وهناك وجدا أيهم ورجاله بانتظارهما

فسأل أيهم رنوة: هل تحدثتِ مع الإمبراطور؟

نعم

- وماذا قال؟

لقد خُدعنا، الإمبراطور لن يبني أي سد

- وماذا سنفعل؟

ردت رنوة بينما ترخي جسدها في استسلام على الكرسي: ليس أمامنا شيء لنفعله

حينها طرق الباب فارتجف القوم لكنهم اطمئنوا لما دخلت ديالا فسألتها رنوة: أين سديم لمَ لم يأتي معك؟

أجابتها: لم يستطع المجيء لديه عمل هام بالقصر، والأفضل ألا نأتي معًا حتى لا يشك أحد في أمرنا

اقترب الفأر من فهر وسأله: وأنت ماذا فعلت؟

أخرج فهر الزجاجات الفارغة من جيبه ووضعها على الطاولة قائلا:

أما سنواتي فما عاد من سبيل إليها على الرغم من أني كنت قاب قوسين أو أدنى منها لكني فشلت في استرجاعها

- استنزفها الإمبراطور أليس كذلك؟

أومأ فهر برأسه ثم عاد يقول:

ربما أضاع الكثير منا حياته هباءً ودون شيء حقيقي ليفعله، والبعض أضاعها في الانتظار أو في أملٍ واهٍ لكننا جميعًا نمتلك اللحظة الحالية حيث نحن هنا الآن وربما أنا حقًا لا أعلم من أكون, لكني بت أعلم ما أريد

وما الذي تريده يا فهر؟ سألت رنوة

أريد أن أساعدكم في حل مشكلتكم

زفر أيهم قائلا: لكن مشكلتنا ليس لها حل!

رد فهر: بلى لها،عليكم التخلص من الإمبراطور

بدا الذهول على وجوههم ونظر بعضهم لبعض

قال الراهب مقدام: لا أحد يستطيع الاقتراب من الامبراطور, إنه قوي للغاية

تحدث فهر: أنتم متوهمون, انظروا جيدًا, ألا ترون قدمه المعطوب وتلك العصى بيده؟ ألم تفكروا يومًا فيمَ يستخدمها؟

"إنه الصولجان الملكي رمز الإمبراطورية" قال أيهم

رد فهر: لا إنها عصى يتوكأ عليها، ألا تسمعون صوته الواهن؟ فكيف تخافونه وتقدسونه كإله رغم كل ما به من عيوب؟!

اخرس وإلا سمعك المترصدون

قالت ديالا خائفة

رد فهر: لست أخشاهم إنهم منافقون

إنهم أفواه الإمبراطور وآذانه, لذا عليك أن تحذرهم

قال الراهب بينما يسرع بغلق النوافذ

وماذا ستفعلون؟ سألت ديالا

رد فهر: سنخبر الناس بالحقيقة

- لن يصدقك أحد

- كيف لا يصدقون ما ترى أعينهم؟

سألت رنوة: حتى وإن صدقوك, ماذا بأيديهم ليفعلوه؟

- التحدث والمطالبة بحقوقهم

سألت ديالا: والمترصدون؟

رد فهر: سيكون الأمر بعيدًا عن آذانهم

سأل الراهب: وكيف سيطالب الناس بحقوقهم

رد فهر: يوم الاحتفال عندما يُحشر الناس في الساحة ويقف الامبراطور ليخطب فيهم سيسألونه ويطالبونه بحقوقهم

بدا الرضى على وجه الجميع، حينها استأذنت ديالا:

عليّ الذهاب فقد يشكوا في أمري إذا تأخرت أكثر من ذلك ذهبت ديالا وعلى أعقابها خرجت رنوة وفهر ليحدثا الناس، أُجبر فهر على أن يرتدي لثام ليخبئ وجهه حتى لا يُقبض عليه وبينما يسيران وجدا امرأة تنبش في القمامة تبحث عن طعام فاقتربت منها رنوة وسألتها: ماذا تفعلين؟ ارتجفت المرأة وقامت من موضعها تود الهرب أمسكت بها رنوة قائلة: انتظري, أنا لا أريد إيذائكِ بل أود فقط محادثتكِ وقفت المرأة تستمع في خوف بالغ

قالت رنوة: ما الذي يجبركِ على فعل هذا؟

ردت المرأة: الجوع, وهل سواه يجبر المرء على المذلة؟

- لكن أليس لك معيل؟

أجابت المرأة: ليس لي أحد، أخذ رجال الإمبراطور زوجي عنوة

استفسر فهر: ولمَ لا تعملين؟

- امرأة فقيرة مثلي ليس لها إلا عمل واحد وأنا لست ممن يبعن أنفسهن من أجل كسرة خبز، أفضل القمامة على ذلك
- ألا تعلمين لمَ أخذوا زوجكِ؟

- أخذوه ليعمل مع الرجال في بناء السد
- وصدقتيهم؟
- ما الذي تعنيه يا رجل؟

فتحدثت رنوة: منذ متى أخذوا زوجكِ؟

أجابتها محزونة: منذ سنوات

- ولم يعد إلى الآن ولم تريه حتى لمرة واحدة؟
- نعم صحيح

فقالت رنوة باستياء بالغ: وأنا أيضًا أخذوا والدي منذ أمد بعيد لأجل هذا السبب الواهي، ولقد جئت من بلاد بعيدة أبحث عنه هنا

سألت المرأة باهتمام بالغ: وهل وجدتيه؟

- نعم .. إنه في أرض الموتى, هو وكل من أخذهم رجال الإمبراطور ليبنوا السد، والحقيقة أنه ما أخذهم لذلك بل ليسخر أرواحهم لخدمته

شحب وجه المرأة فجأة أكثر مما هو شاحب وبدا عليه الزرقة وتكونت غصة في حلقها أعجزتها عن الحديث

ثم بعد وقتٍ قالت: هل أنت متأكدة؟

- نعم تلك هي الحقيقة

قال فهر: ولذلك نريدك أن تساعدينا

نظرت إليه المرأة في تعجب قائلة:

وما بيدي أنا لأفعله؟!

رد فهر: نريدكِ أن تخبري الناس بما أخبرناكِ به وأن يجتمعوا يوم الاحتفال بعيد النهر ليطلبوا من الامبراطور حقوقهم

أومأت المرأة مجيبة: سأحاول

تولوا عنها فعادت تنبش في القمامة

حاولوا محادثة الناس لكن الغالبية صدوا عنهم صدود بالغ وولوا وجوههم معرضين بينما يسيران وقد أوشكت شمس المغيب على الزوال, سمعا صراخ يأتي من أحد البيوت؛ فوقفا على مقربة يشاهدون أحد المترصدين بينما يجر امرأة من بيتها وألقى بها داخل عربة يجرها حصان ضخم بينما رجل واقف على أعتاب الدار لا ينبس بكلمة ولم يحرك ساكنًا ولا أحد من المتفرجين يجرؤ على الحراك من موضعه، كأنهم لا يملكون سوى أحقية المشاهدة فحسب!

نظر الرجل إلى العربة المغادرة وطأطأ رأسه ودخل المنزل انفض جمع المتفرجين وعاد كل واحد منهم ليتابع أعماله تقدم فهر من أحد الرجال الواقفين وسأله: ماذا فعلت تلك المرأة؟

ارتجف الرجل وأخذ ينظر في كل اتجاه كأنما يخشى أن يسمعه أحد أو يراه ثم رد همسًا: لم تفعل شيء

- ولمَ أخذوها؟
- هم يودون ذلك، لعلهم يريدون بعض التسلية
- ومن ذلك الرجل الذي كان واقفًا إلى جوارها؟
- إنه زوجها

تعجبت رنوة بينما تسأله:

ولمَ لم يحرك ساكنًا عندما أخذت زوجته من عقر داره

تلفت حوله كثيرًا قبل أن يجيبها:

لا أحد يعارض رجال الإمبراطور.. الموت لمن يفعل

قال فهر منفعلًا: الموت أشرف له

انزعج الرجل قائلا:

من تكونان لتعترضان على قوانين أرضنا؟ أنتما لا تفهمان شيء .... لا تفهمان شيء

رددها الرجل كثيرًا بينما يرحل عنهما مبتعدًا وجسده يرتجف بقوة

في حشد مهيب اجتمع فيه أهل أراضي الإمبراطورية

وقف الإمبراطور بردائه الذهبي يخطب في الحشد وإلى جواره ديالا، والغريب أو الساحر أو فهر الغريب أو أي ما أطلقه الناس عليه، كان هذا الرجل مستنزف السنوات, مقيد على المنصة ينتظر الحكم، تذكر ليلة أمس عندما كان في طريقه هو ورنوة إلى بيت الراهب فقبض عليه المترصدون

وقبل أن يتحدث الإمبراطور بشيء قال الحضور:

نريد بناء السد إننا نموت عطشًا وجوعًا والنهر قد غير مساره

تحدث الإمبراطور بعد أن أسكت المترصدون الحضور بصدى أطلقوه من أفواههم تحكم في الحشد فأخرسهم

فقال: لقد حلت علينا اللعنة بسبب ذلك الغريب, لذا غضب النهر وحول مساره

صرخ الغريب قائلا: لكني لست من بنى بدلا من السد حصون وقلاع, لست من نهب الأرض وجوع الناس بل أنت فعلت!

ضرب المترصدون الغريب وحاولوا إسكاته عن طريق صداهم لكنهم فشلوا فحشوا فمه بالقماش ليتوقف عن الحديث، اضطرب الحشد فعاد المترصدون لإطلاق صداهم

حينها ارتقى نافع المنصة ووقف إلى جوار فهر قائلا:

إنه قاتل كيف تصدقون مجرم؟

صرخ فهر معترضًا: إنك كاذب. أنا لم أقتل أحد

- - وما دليلك؟ قالها نافع واثقًا من عجز فهر على إثبات براءته

صرخ صوت من بين الحشود: هو لم يقتل أحد

كانت تلك رنوة التي ارتقت المنصة وبيدها الرجل من أرض النوايا المتهم فهر بقتله

بدا الذهول على وجه نافع عندما رآه فقال فهر:

ها هو أمامك فاسأله إذ كنت قتلته أم لا

ارتجف نافع: كيف للموتى أن يعودوا؟

ساد صمت تهامس فيه الحشد

فقال فهر مترجيًا الرجل:

هيا أخبرهم بالحقيقة ماذا تنتظر؟

تردد الرجل كثيرًا في الحديث وقد كان يرى أمامه نفرًا من أرض الموتى جاءوا ليأخذونه، فكر بالهروب, لكنه اكتشف أن لا مكان ليذهب إليه، إنهم سيأتون به وإن عاد لبطن أمه

فقال وقد أمسكت به الأطياف:

هذا الرجل بريء من دمي أنا لم أُقتل, وما إن أنهى جملته حتى استحال إلى كومة من التراب وسقط المعطف أرضًا

شهق الحشد مذهولًا وساد صمت مريب لبضع لحظات تبعه همس: إنه ساحر.. لا يفعل هذا إلا ساحر

اقترب نافع من فهر وقد بدا الرعب على وجهه: اعذرني, لم أقصد إيذائك, هي من جعلتني أفعل كل هذا لتستولي على ما تبقى من سنواتك.. قالها بينما يشير لديالا

تحدث فهر بحزن: كانت تخدعني طوال الوقت

عاد نافع يقول: ليس هذا فحسب, بل كانت تحمل سنواتك وسنواتها منذ البداية ولم تعطِ أي منها للمترصدين

- ولمَ لحقت بنا؟ أكانت لعبة تلك أيضًا؟

رد نافع: لا، لكننا لم نكن نظن أن الأمر سيصل للقتل، خرجت الأمور عن السيطرة عند هذا الحد

- والزجاجات الفارغة التي كانت إلى جوار فراش الإمبراطور؟

رد نافع: هي أهدتهم للإمبراطور كي تحصل على مكانة لديه

- ولكن لمَ تفعل بي ديالا كل هذا؟ ماذا فعلت لها؟

سأل فهر بحزن بالغ

- علمت أن لا أحد غيرك سيوصلها للقصر, وعندما تأكدت من ذلك تمسكت بشدة بخطتها تريد أن تكسب مكانة لدى الإمبراطور.. أنا فقط ساعدتها, لقد أخطأت أرجوك لا تؤذيني أيها الساحر

رد فهر: ليس بإمكاني فعل هذا

اضطرب الحشد هذه المرة بقوة وزاد اللغط، أشار الإمبراطور بيده فأطلق المترصدون صدى أوقف الحشد عن الكلام وبدوا كالأصنام وأبصر فهر ديالا بينما تهمس في أذن الإمبراطور الذي خاطب الحشد قائلا:

علينا قتل الغريب الساحر، سنقدمه قربانًا للنهر ليهدأ ويعود لمساره، حينها سيعم علينا الخير وتخضر أراضينا

هلل الحشد فرحًا آملين عودة الرخاء بينما انقبض قلب الغريب فزعًا من مصيره وفي زنزانته وُضع لينتظر مصيره وهو لأول مرة يعلم ما سيواجهه، إنه الموت لابأس به إذًا لقد كان في أرضه ويعلم ما سيلاقيه، وللحظة مر شريط ذكرى أيامه على هذه الأرض نصب عينيه، وشعر بلذة التذكر وما كان يدرك أن للتذكر لذة هكذا ، انزوى بجانبه وقد هدهده الحلم وهده الألم وتكالبت على رأسه ألف فكرة مزعجة جعلته ينتحب، إنه غارق في التيه متوغل فيه بكل جوارحه ويشك في صميم ذاته أنه قد كان شخصًا يومًا ما له ذاكرة, وربما

سعيه الحثيث لم يكن خلف ذاكرته أو سنواته، بل لعله سعي لا أمل فيه للوصول لشيء سوى إرهاق نفسه وتعذيبها

نام وقد كان النوم أحب لمقلتيه مما عاداه، كان الصوت المنتحب قد فارقه لكنه سمع ما بين الصحوة والنوم صوتًا يقول له:

أيها المهاجر لأطراف البلاد، التائه على الطرقات، المار بأرض الله، المنتثر قلبك في هوائها لذرات غبار لا ترى،

أيها القاطن بئر الوحدة، القابع في ظلماته للأبد، أيها الحامل في صدره ظلمات العالم وظلمه، أيها الغريب الظالم لنفسه عد أدراجك واستقر بين جدران كهفك الخاوي فلا مكان لك في زحام هذه الأرض

وقبل أن يتيقن من مصدر الصوت أو يتناساه لينعم بالنوم، فُتح باب زنزانته فقام مرتجفًا, ليجد نافع يقف لدى الباب ويشير إليه بالخروج, قال فهر مرتعدًا: هل حان الموعد؟

رد نافع: لا بل جئت لأخرجك، أسرع قبل أن يرانا أحد

- سوف تساعدني على الهروب؟
- نعم، وكفاك أسئلة فأصدقائك ينتظروك بالخارج, أسرع فهر بترك الزنزانة وسار خلف نافع الذي أخرجه من طريق يخلو من الحرس حتى وصل به لخارج السجن وقبل أن يعود أدراجه حدثه فهر: شكرًا لك

رد نافع: لقد فعلت هذا تكفيرًا عن ذنبي, أرجو أن تسامحني

أجابه فهر: لقد فعلت

ثم استقل فهر عربة يجرها الأحصنة، بداخلها وجد رنوة والراهب فشعر بسعادة بالغة وحدث رنوة:

ظننت أني لن أراكِ مجددًا؟

تبسمت مجيبة: ما كنت سأتركهم ليقتلوك

بعد دقائق من جلوسه بالعربة سأل فهر: إلى أين نحن ذاهبون؟

رد الراهب: إلى شخص بإمكانه مساعدتك

وقفت العربة, وهبطوا أمام بيت من عقيق يقبع وحيدًا على أطراف البلدة, دخلوا وهناك وجدوا الفأر بانتظارهم

تحدث فهر: أيها الفأر! أين كنت؟ لقد كادوا أن يقطعوا رأسي

تركه الفأر وارتقى درجات سلم ورآه بينما ينسلخ عن جلده ويكبر حجمه ويتحول لإنسان

وقف فهر ينظر بذهول، ارتدي الرجل معطفًا وتقدم نحو فهر وحدثه: ما بك يا فهر؟

- من أنت؟!!

أجابه: بالنسبة إليك أنا الفأر الناطق, أما بالنسبة للجميع فأنا كبير حكماء هذه الأرض ،

نظر فهر لمن حوله قائلاً :

هل كنتم تعلمون من البداية من يكون ؟!

أجاب الراهب : لقد سمعنا كثيراً عن كبير حكماء الأمبراطورية لكن لم نكن نعلم أن بإمكانه التحول الفأر

- وماذا تريد مني؟
- أن أساعدك
- لم تفعل شيء حين كنت بحاجة إليك, فماذا ستفعل الآن؟
- أنت الآن في أمس الحاجة إليّ أكثر من ذي قبل

- وماذا ستفعل؟

لقد وصلتك رسالتي أليس كذلك؟

تذكر فهر الصوت الهامس بأذنه عندما كاد أن يوشك على النوم قبل أن يقتحم عليه نافع الزنزانة, وأدرك أن تلك كانت رسالته

فقال: تريدني أن أرحل؟

- بل عليك الرحيل فالمترصدون سيقتلونك
- لكني لا أريد الرحيل!
- ولمَ ستبقى؟
- لا أعرف أحد هناك.. لا أتذكر شيء
- ومن لك هنا؟
- أعرفكم وبعقلي ليس إلا ذكرى أيامي معكم

قال الحكيم: قريبًا لن تجد رأسك لتتذكر شيء

قالت رنوة: نعم يا فهر احتفظ برأسك ولتتذكر من تتذكر ولتنسى من تنسى

قال الراهب بدوره: لو كنت مكانك لسمعت كلامهما وقلقت على رأسي لا ما تحويه

تنهد فهر مجيبًا: دعني أفكر قليلا

تقدم نحو رنوة ثم انفرد بها قائلا:

ماذا علي أن أفعل؟

- عليك النجاة بنفسك يا فهر
- نظر في عينيها قائلا:

لكني أريد البقاء, فأنا أحبك يا رنوة!

اضطربت فتحركت أذنيها والتمعت عينيها لكنها ألقت نظرة إليه وعلمت أن في البقاء موته وفكرت في قرارة نفسها كيف لمثله أن يحب مثلها؟ كيف لآدمي أن يحب مختلطة العرق؟ وعلى الرغم من أن عينيها تبوح له بمدى حبها إلا أن لسانها أخبره:

- فهر ..عد من حيث جئت, تذكر من تكون حينها قد لا تحبني
- لكني أحبك في أي وقت وعلى أي هيئة كنتِ، ولا شيء مما سأتذكره من حياتي السابقة سيمنعني عن حبكِ, هذا محال

كانت كلماته تزيد قلبها انفطارًا لكنها وقفت ثابتة لتخبره: لكني لا أحبك

نظر إليها مليًا بينما تتركه وترحل لتقف بهدوء تام إلى جوار الراهب

حينها تقدم فهر من كبير الحكماء قائلا:

أبعدني عن هنا.. ما عدت أطيق هذه الأرض بعد الآن

أمره الحكيم فاستلقى على مرتفع من أرضية زجاجية أسفل الفتحة الدائرية لسقف الحجرة والتي يري من خلالها السماء

ألقى فهر نظرة أخيره على رنوة قبل أن يغلق عينيه ويتلاشى جسده من البقعة المضيئة بالغرفة

حينها دمعت عيني رنوة بينما تكمل جملتها:

لكني لا أحبك يا فهر.. بل أعشقك

.....

فتح عينيه ليجد نفسه في غرفة ورجل يرتدي مئزرًا أبيضًا يقف فوق رأسه، وجه لعينيه ضوء أعماه ثم أمسك بيده وقال: لقد تحسنت كثيرًا اليوم يا وليد

تعجب من ذلك الاسم الذي أطلقه عليه ذلك الرجل لكنه لم يتحدث

ظل أيام يعاينه الطبيب ويأتي أناس كثر لزيارته

منهم من يقول أنه صديقه أو أخيه أو أحد معارفه لكنه لا يتذكر شيء ولا يألف أي وجه عدا امرأة جاءت ذات صباح وجلست إلى جواره وحدثته: هل أنت بخير يا وليد؟

لكنه لم يجب, ظلت تنادي: وليد .. يا وليد

نظر إليها إذ ليس بالغرفة إلا هو وهي

فقالت: هل تتذكرني ؟

نظر إليها مليًا دون فائدة ثم هز رأسه نفيًا

قصت عليه قصة حبهما التي لا يتذكر منها شيء

ولما وجدت أن لا فائدة بكت قائلة:

لقد عشت سنوات أشعر بالذنب لأني تخليت عنك وتزوجت بغيرك، كنت آتي هنا لأبكي إلى جوارك كل يوم لعلك تسمعني أو تفق من غيبوبتك، لكن لا شيء حدث، وفي ليلة قمرية كنت أجلس إلى جوارك وسمعت صوتًا داخل رأسي يخبرني بأنك لن تعود أبدًا لذا خشيت أن تضيع سنواتي وأنا أنتظر دون أمل, أجابها متذكرًا ذلك الصوت الباكي الذي أرقه ليال طوال: لقد أحسنتِ في فعلتك نظرت إليه مستاءه ثم تركته ورحلت من بعدها جاء الطبيب وجلس أمامه بينما هو لم يلتفت إليه بل ظل يحملق في السماء عبر النافذة الزجاجية فسأله الطبيب: كيف حالك اليوم؟

رد: الجو معتم والضباب كثيف يحجب عني رؤية الأشياء

- نعم الجو ليس على ما يرام اليوم تحدث الطبيب ثم عاد يقول: دعك من الجو وأجبني ما اسمك؟
- أنا غريب أو فهر الغريب هكذا يقال لي
- أليس لك اسم غيره؟
- كل الأسماء تشبه بعضها, انتقِ لي ما يعجبك سأرضى به

- كم عمرك؟ ألديك فكرة؟
- ما الفائدة من معرفته إذا كنت أكبر في الثانية ألف عام!
- أتعلم في أي عام نحن؟ في أي يوم؟

أجابه بينما يخدش بأظافره زجاج النافذة:

إنه وقت آخر ملزم بقضائه دون رغبة مني، لذا لا داعي لتمييزه هذا لن يغير في الأمر شيء

- هل لديك عائلة أو أصدقاء؟
- وُلدت وحيدًا.. وسأعيش وحيدًا وأموت وحيدًا
- هل أحببت يومًا؟

أغمض عينية يستحضر صورتها ثم تنهد قائلا:

لقد كان عمري بمثابة يوم حار قائظ ورنوة كانت الغيمة التي أظلتني للحظات وما زلت أنتظر عودتها

- ولمَ أحببتها؟ سأل الطبيب باهتمام
- لقد اقتحمت عالمي دون إنذار، أضاءت عتمتي، كان الجميع يقف على أعتابي وأنا أغلق الأبواب في وجوههم، كنت مستمتع بذاتي ووحدتي، أحيط نفسي بألف سور، فإذا هي تنزع الأبواب وتهدم الأسوار

وأحببتها أكثر لأني عندما عدت بناء الأسوار لم ترغب في الرحيل, لقد أحبت عتمتي، واختارت أن تكون تعيسة لكي أنجو أنا، لكني كنت غبيًا ولم ألحظ أنها تحاول حمايتي

- تحاول حمايتك مماذا؟ سأله الطبيب باهتمام

أجاب: من المترصدين

مترصدون! .... ما المترصدون؟

لم يجبه، فعاد الطبيب يسأل:

وأين هي حبيبتك الآن؟

أشار بإصبعه, إنها هناك خلف الضباب في العالم الذي لا يمكنك فيه أن تدعي البراءة وأنت مجرم

عاد الطبيب يكتب ملاحظاته ثم سأله: وهل كنت أنت في هذا العالم؟

- نعم, ولهذا عدت عجوزًا, لقد سرقوا سنواتي

سنواتك! وكيف فعلوا هذا؟

- عبر ترياق أُجبرت على تناوله
- أممم ترياق

عاد يقول: لكن باستطاعتي استعادة سنواتي إذا عدت لأرض النوايا، هناك سأعمل صالحًا وسأعود شابًا

جاراه الطبيب: وكيف تعود إلى هناك؟

- لست أعرف وهذا ما يجعلني غاضب
- ولمَ رجعت إلى هنا إذا كنت تود العودة؟
- كان سيقتلني المترصدون

كتب الطبيب ملاحظاته بينما يهز رأسه بأسى قائلا:

عاد يهذي من جديد ويخترع لي قصة أخرى

ثم حدثه بينما يقوم من موضعه: سأكتفي بهذا القدر طاب يومك

لم يجب وظل صامتًا حينها كان الطبيب قد أمسك بمقبض الباب, فحدثه فهر بينما يرسم قلبًا على زجاج النافذة: بظنك هل سينقشع الضباب؟

أجابه الطبيب: نعم قريبًا، لا يمكن للضباب أن يبقى للأبد

بعد أيام عدة عاد الطبيب وجلس معه:
فقال: احكِ لي يا فهر.. أنت تودني أن أناديك فهر أليس كذلك؟

- نعم

حسنًا, احكِ لي يا فهر عن تلك الأرض التي زرتها
رد فهر: لقد كانت إمبراطورية عظيمة بها أراضٍ عدة
فقد رأيت أرض يحاسب فيها الناس على نواياهم ومع ذلك لا يتوانون عن إتيان منكر والخير فيهم إن فعلوه فهو ليس خالص للخير بل رجاء مما يعود عليهم منه، يريدون الشباب والحياة فيظل الواحد منهم على سوءه متعشمًا أنه في الوقت المناسب سوف يفعل ما يعيد إليه صحته فإذا به على أعتاب الموت لا يقوى حتى على التفكير بخير يرد إليه عافيته
وأرض أصحابها يبدلون الحق بالباطل، ويقلبون الكذب حقيقة، والحقيقة كذب، يسعون خلف الحاكم كما تسعى الضباع الجياع خلف الرمة
ورأيت قومًا يقدسون الضعف كما تقدس الآلهة، لا لهم قلوب تعقل ولا آذان تسمع، كسالى لا شرف لهم، يرى الواحد منهم زوجته تُغتصب فيولي وجهه الناحية الأخرى ويمضي مبتعدًا
قال الطبيب: هذا بالإضافة إلى أرض الموتى لقد حدثتني عنهم من قبل..

- نعم ..نعم والمترصدون أيضًا

هز الطبيب رأسه بينما يقول:
لقد أصبحت تهذي من جديد، عليك أن تعلم أن سنواتك لا يمكن أن تُستنزف مثلما تقول وأن الفئران لا تتحدث ولا وجود للمترصدين، وليس هناك ما يُدعى بأجراس الموتى
رد فهر بعنف: أجراس الموتى ليست وهمًا, إنني أسمعها كل ليلة، حتى أني أسمعها الآن، وقلادة القمر ها هي معي، لايمكن لكل هذا أن يكون وهمًا

نظر الطبيب للرفقة من حوله قائلا: كما ترون حالته مستعصية, غدًا سنبدأ في استراتيجية جديدة للعلاج

تركه الطبيب ورحل وهو متيقن من أن هذا الرجل مجنون

كانت الساعة قد دقت الثانية عشر صباحًا منذ خمس دقائق، والغرفة إلى جواره المريض بها مازال يتشاجر مع ذباب وجهه كالعادة لكن الصوت انقطع فجأة وغمر المكان هدوء غريب جعله يقوم عن فراشه، وينظر عبر الباب فوجد الحارس يقف كصنم ناداه فلم يجب, فعاد أدراجه وجلس على فراشه وأوشك على النوم

لولا أنه رأى على حافة الفراش الفأر الذي حدثه:

عليك الهروب من هنا فقد حاصر الشعب القصر ويريدون إسقاط الإمبراطور ،لذا بعث بالمترصدين لجلبك والإنتقام منك

أجابه فهر: إنني بانتظارهم وأود العودة

- لمَ؟
- لأني أنتمي حيث تكون ذاكرتي، فقد حرى بي أن أبحث عن ذاكرتي بدلا من سنواتي، على الأقل كنت سأجد بقية من الماضي في عقلي لأحياه مرارًا وتكرارًا دون توقف
- لكنك سوف تشقى!
- الشقاء هو أن تكون غريبًا وأنا هنا غريب أكثر من أي وقت مضى، على الرغم من أن الجميع يعلم من أكون
- وهل تعلم أنت من تكون؟

أجابه: أنا غريب.. فهر الغريب

الناشر:

الكتابة تجمعنا للنشر والتوزيع

رقم الهاتف:

01066476589

فيسبوك:

/https://www.facebook.com/Wriiiter

المدير العام:

حسن محمد حسن